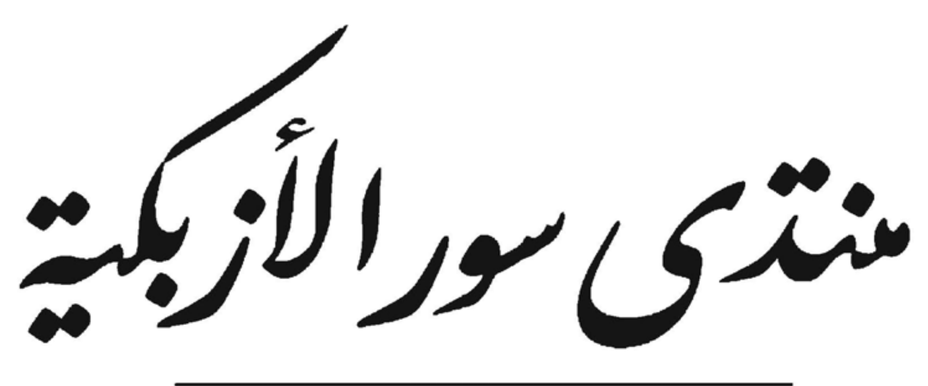
المكتبة الفلسفية

د. أحمد عبد الحليم عطية




منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

فلسفة القيم

(نماذج نيتشوية)

نبيل عبد اللطيف

فلسفة القيم

(نماذج نيتشوية)

مقدمة

يتعلق موضوع بحثنا بمسألة مركزية في الفكر النيتشوي وهي مسألة الحياة والقيمة التي نجدها في كل لحظة من لحظات التفكير لدى نيتشه. لذلك كان لزاما علينا ألا نتقيد في بحثنا هذا بمؤلف معين لفيلسوفنا لأن كل كتاباته تحمل في ثناياها نفحات تصور موقفه من الحياة بما هي حقل تقويم، ذلك أن الإنسان يستمد قيمته في العالم من كونه واضع قيم بإطلاق.

حاول نيتشه أن يرسم تصورا جديدا للحياة خالف به كل الفلسفات الميتافيزيقية السابقة والتصورات الدينية السائدة وخاصة منها التصور المسيحي الذي يعادي الحياة ويقصي كل بعد حيوي فيها حسب تصور فيلسوفنا.

ولعل ذلك ما يجعلنا نقر بان فلسفة نيتشه في جانبها المتعلق بالحياة والقيم، هي فلسفة نقدية لا على طريقة كانط بل على طريقة «فيلسوف الحياة» الذي يجعل من «إرادة القوة» ومن «الغرائز الحيوية» مرجعا أساسيا لخلق القيم، هذه القيم الجديدة التي يحدد بها الإنسان معاني وجوده.

إن جوهر فلسفة نيتشه- بهذا المعنى- يتعلق بالبحث عن «صنع» نموذج للإنسان لم يكن موجودا من قبل، إنه «الإنسان المبدع» الذي يصنع قيمه بنفسه. إن الإنسان لا يمكن أن يكون واقعا معطى بل هو واقع يتوجب تحقيقه بكل المعاني[1].

ولعل الفكرة الأساسية التي أراد نيتشه إقناعنا بها، وحاولنا من جهتنا تتبع مسارها، هي أنّ الحياة بما هي تقويم ليست موضوع معرفة بقدر ما هي حياة نحياها بالفعل.

ولكن ألا يعد التقويم نفسه نوعا من إنتاج المعارف المتصلة بالحياة ؟

إننا كثيرا ما نسلم بان العلاقة التي تربط المعرفة بالحياة هي علاقة صراع متبادلة، فإمّا أن تحطم المعرفة الحياة، وإما أن تقضي الحياة على المعرفة.ولكن يمكن القول، في المقابل، بان الصراع الحقيقي ليس صراعا بين الفكر والحياة، بقدر ما هو صراع بين الإنسان والعالم، وهو صراع يجري في مستوى الوعي الإنساني بالحياة[2].

إنه لا مجال للحديث عن معرفة من أجل المعرفة مثلما لا

(1) الكسيس فيلونينكو:نيتشه فيلسوف الحياة: مجلة الفكر العربي المعاصر، ترجمة بدر الدين عرودكي . العدد 134-135- شتاء 2006 .

(2) Canguilhem. Georges : la connaissance de la vie. Introduction : La pensée et le vivant. p10. vrin. Paris 1971.

حديث «عن الأكل من أجل الأكل»، والأجدر بالمعرفة أن يكون لها معنى خارج ذاتها. وإذا كانت المعرفة تحليلا بالأساس، فلا يعني ذلك أن نبقى في نطاق التحليل لا نتعدى حدوده.

إن المعنى الكامن للمعرفة يتمثل في الغاية نفسها التي تصبو إليها إلا وهي تمكين الإنسان من علاقة جديدة بالعالم تكون أكثر توازنا، ومنحه كذلك صورة جديدة للحياة.يهتدي من خلالها إلى تنظيمها وفق تصور جديد. ولعله هنا بالذات يتنزل المعنى النيتشوي «لخلق القيم» بما هي قيم تعلن عن تصورات جديدة للحياة.

إن المعرفة قد لا تحطم الحياة ولكنها في المقابل «تهزم تجربة الحياة» وذلك بتجريدها عن طريق التحليل واعتماد القوانين النظرية.

ويمكن القول تبعا لذلك، بأنه إذا كان الفكر والمعرفة ينخرطان في الحياة من اجل تعديلها بصفتهما فعلين إنسانيين، فإن هذه الحياة نفسها لا يمكنها أن تكون قوة ميكانيكية عمياء وغبية لا تشدنا إليها إلا حين نتخيلها معارضة للفكر[1].

أما بالنسبة إلى الفلاسفة الذين اعتبروا المعرفة نتاجا للخوف والرعب الإنسانيين (أو المعرفة بما هي دهشة)، فإنه من الضروري أن ينتبهوا إلى ضرورة أن يكون هذا الخوف شرطا لتحرر الإنسانية وإكساب الحياة طابع الحرية[2].

---

(1) Ibid

(2) Si la connaissance est fille de la peur c'est pour la domination et =

وفي هذا الاتجاه بالذات يعتبر نيتشه أن قيمة الحياة لا تكمن إلا في الحياة نفسها[1] .

إن تكوين معرفة بالحياة في مستواها البيولوجي لا يفي بالحاجة إذا لم يقترن بإدراك المعنى المخصوص للحياة وبيان كل قيمة تقترن بحركاتها. وهكذا يمكننا أن نبحث في تأثير الأملاح المعدنية في نمو العضوية وان نتابع أي تأليف كيميائي لأي هرمون أو أن نبحث في القوانين المتحكمة في الأعصاب أو في ردود الأفعال الشرطية.

ولكن يقيناً، كل هذا في حد ذاته ليس سوى معرفة بيولوجية بحتة ما دام ينقصها الوعي بمعنى الوظائف التي تقترن بها لأن تمثل الكل هو وحده الذي يسمح بتقييم الأحداث وتحديد ما يكون حاملاً للمعنى.

إن أي عقلانية من المفروض أن تعترف بحدودها وتستوعب شروط تحققها، فالعقل لا يمكنه أن يطبق على الحياة إذا كان هو نفسه لا يعترف بخصوصية الحياة وتفردها، وهذا ما تفطن إليه نيتشه معتبرا الحياة مجالا حيويا يفلت من قبضة كل اختزال عقلاني.

يجب على الفكر أن يستمد من الكائن الحي فكرة كل ما هو

=

l'organisation de l'expérience humaine, pour la liberté de la vie. Canguilhem, Georges, la connaissance de la vie ». Introduction, p.11, vrin, Paris 1971

(1) Nietzsche, F, le crépuscule des idoles, § 2.Mercure de France, 1899.

حي، ومن ثمة النظر إلى الحياة في بعدها الحي لا في بعدها الجامد.[1]

لقد بدا لنا نيتشه مبشرا بعصر جديد على غرار الأبطال العظام والقديسيين والأنبياء، وإن كان مخالفا لهم في المنهج والطريقة.وإذا كان التبشير كثيرا ما كان في شكل أحلام طوباوية عند هؤلاء، فإن نيتشه يسعى إلى خلق واقع جديد، واقع ارضي تحكمه قوى حيوية وغرائز متوهجة، لذلك كان فيلسوفنا يحدد معنى الفكر على أنه «اختراع إمكانيات جديدة للحياة» على حد تعبير جيل دولوز. وأن هذا الاختراع لا يتم إلا بالعمل ضد قيم العصر السائدة ولصالح عصر جديد مقبل لا محالة.

وتبعا لذلك تكون مهمة الفيلسوف النيتشوي، بما هو نموذج للفيلسوف، مهمة المحارب والمغامر الذي يرفض سكون الحقيقة ويسعى إلى تأكيد حقيقة الحياة[2]. وأن منطق الحياة لدى نيتشه يرفض الجمود والسكون والركون إلى الحلول الجاهزة التي اقترحتها الفلسفات المثالية والميتافيزيقية والأديان السائدة.

لذلك نرى فيلسوفنا يرفض كل تلك الحلول التي لا تزيد عن

---

(1) «La pensée du vivant doit tenir du vivant l'idée du vivant» :
Canguilhem, Georges : la connaissance de la vie, p.13, vrin, 1971

(2) أنور مغيث: مجلة «إبداع»، العدد 9 – سبتمبر 2001-الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة.

كونها «حقائق مرعبة» يديرها «مخادعون ومنافقون» من أجل الإيقاع بالإنسانية وإيهامها بوجود «عوالم أخرى » أفضل من«العالم الأرضي»، في حين أن المطلوب منا أن نعتقد بأنه يوجد في الحياة ما يدعونا إلى الإقبال عليها.

ولكن الاحتراز النيتشوي هو أن الحياة لا تفتح ذراعيها إلا للأقوياء وللنماذج الإنسانية القادرة على تجاوز الذات، فدرجة القوة هي المحدد لمنزلة الكائن.[1]

وأما اختيارنا لموضوع بحثنا هذا «الحياة والقيمة عند نيتشه»، فقد أملته علينا أسباب عديدة، منها ما هو ذاتي ومنها ما هو موضوعي.

ومن أهم الأسباب الذاتية التي وجهتنا هذه الوجهة هي التعلق بشخصية نيتشه بوصفه فيلسوفا لا كالفلاسفة، من حيث طرافة الأسلوب، أو ما يمكن أن نطلق عليه «الأسلوب الشذري»، وتلك الطريقة السلسة الفنية في بسط الآراء والأفكار والتي تعلن بأسلوب إيحائي وجود قرابة ما بين الفلسفة والشعر، وهذا في الحقيقة ما يميز نيتشه عن البقية ويرغب القارئ والباحث في متابعة أفكاره التي لا يصدك فيها جفاف اللغة الفلسفية الكلاسيكية وتعقيدات المناطقة وكبار الميتافيزقيين.

وبالإضافة إلى ذلك فإن نيتشه يأسر القارئ والباحث بما يخرج

---

(1) Nietzsche. F. Aurore. p 262 oeuvres philosophiques complètes. tard. Julien Hervier. Gallimard. Paris 1970

لنا به من أحكام وآراء مخالفة للسائد والمألوف، حتى أن الحياة تتحول إلى حركة متواصلة من التمرد، ولكنه تمرد خلاق ينحت مسيرته فيلسوف فنان .إن كتابا مثل«هكذا تكلم زرادشت» يكشف عن «القيم الساخرة» للعصر بواسطة الفن الشعري الذي أحكم نيتشه توظيفه.

وهكذا فإن ما يشدك إلى فيلسوفنا هو أن هناك ضربا من «الجنون» في عقله كما هو الأمر لدى كل فنان كبير، كما أنه «لا يرتعب من فكرة أنه يثير الخوف»[1] .

وأما عن الأسباب الموضوعية لاختيار موضوع بحثنا فتتعلق أساسا بكون فلسفة نيتشه مثلت نقطة تحول كبير في تاريخ الفلسفة، وأردنا من جانبنا، بهذا الاهتمام، أن نتتبع بعض معالم هذا التحول خاصة فيما يرتبط بمفهومه للحياة والقيمة، أملنا في ذلك أن نبيّن أن هم نيتشه البعيد كان أن يجعل من الحياة مجالا قابلا للعيش على الدوام، حتى ولو أدّى به الأمر إلى اختراع مقولات جديدة على غرار «العود الأبدي» «l`éternel retour».

وإن هذا الاختراع بالذات يبين لنا إلى أي حد كان نيتشه مسكونا بهاجس الحياة، وما خلق القيم من هذه الزاوية، إلا رغبة من الكائن في حياة أكثر قوة وامتلاءا، وهي كذلك بمثابة الإعلان النيتشوي عن

---

(1) ألكسيس فيلونينكو: نيتشه فيلسوف الحياة . مجلة الفكر العربي المعاصر- العدد 134-135 شتاء 2006

رفض كل الأفكار والفلسفات الداعية إلى الانسحاب من الحياة.

فإن نمتنع عن خلق القيم هو أن ننسحب من الحياة، وأن نخلق القيم في كل لحظة معناه ان نحيا كل لحظة.

وإن اكتشافنا لطرافة أسلوب نيتشه وتفرد أفكاره وجدة مواقفه، لا يحجب عنا مع ذلك بعض الصعوبات التي اعترضتنا في بحثنا هذا، والمتعلقة أساسا بالمراجع والمصادر التي اعتمدناها، وحتى بعض الصعوبات المتصلة بآراء الفيلسوف نفسها والتي ترجع في نظرنا إلى غياب النسق الفلسفي بالمعنى التقليدي لدى نيتشه، مما يوحي إلى القارئ، في بعض الأحيان بوجود «تناقضات» تشق عمق مواقفه.

ولعل تلك «التناقضات» لا تعدو أن تكون «استراتيجيات واعية» وظفها فيلسوفنا من أجل خدمة هدفه الأقصى المتمثل في خلق قيم جديدة تعلي من شأن الحياة الصاعدة والقوية.

وأما عن المصادر المعتمدة فإن الصعوبات تتعلق بالترجمات العربية لمؤلفات نيتشه التي لم تكن بالدقة والوفاء الذي ييسر لنا بحثنا، مما حدا بنا إلى الاعتماد كليا على الترجمات الفرنسية لهذه المؤلفات.

وبالإضافة إلى ذلك فإن أسلوب نيتشه في الكتابة وغياب النسق الفلسفي- بالمعنى الكلاسيكي-لديه جعلنا لا نتقيد بمؤلف واحد أو مؤلفين له، بل رجعنا إلى معظم مؤلفاته، والتي بدت لنا كلها حاوية لشذرات من الفكر المتعلق بموضوع بحثنا «الحياة والقيمة» .

وإن هذا التوجه في البحث قادنا إلى تبويب عملنا على النحو التالي :

لقد بادرنا في لحظة أولى من بحثنا إلى الاشتغال على معنى الحياة عند نيتشه، فبدا لنا أن فيلسوفنا لا يعطي تعريفا جاهزا للحياة ولا هو من عشاق التعريفات، فالحياة ليست موضوعا للمعرفة، لذلك يقف رافضا لكل الفلسفات التي تحاول تقديم تعريف لها.

إن الأجدر بنا أن نقول مع نيتشه بأن الحياة نحياها بكل قوانا وغرائزنا.

ولقد حاولت الفلسفة النيتشوية في هذا المجال أن تبين زيف ونفاق وأكاذيب كل النزعات التي تدعي بأن «الحياة لا تساوي شيئا» وهي «خالية من القيمة».

وفي علاقة بمبحث الحياة حاولنا في خطوة موالية تتبع معنى «التقويم» لدى فيلسوفنا، مما أظهر لنا أن كل الفلسفة النتشوية تقوم على فعل التقويم بما هو خلق للقيم الجديدة.

وحدا بنا ذلك إلى القول بأن فلسفة نيتشه هي فلسفة نقدية في جوهرها، لأنها تسعى إلى «التقويم على أساس مختلف» إذا ما جاز لنا استخدام تعبير دولوز. إلا أن نيتشه يذهب في هذا المجال إلى أبعد من هذا، مبينا أن العمل الفلسفي الأهم هو تحديد أصل القيم وفصلها، وخاصة منها هذه القيم الأخلاقية التي تنتشر بين الناس دون أن يسائلوها عن أصل وجودها ومشروعية رواجها.

ولقد بينا بعد ذلك أن التقويم بالمعنى النيتشوي يمكن أن يذهب في اتجاهين مختلفين، تقويم سلبي في اتجاه عدمية سالبة، وتقويم إيجابي في اتجاه إثبات الحياة الصاعدة. فالتقويم بالمعنى الأول ينفي

الحياة ويحط من قيمتها، وينتج وعيا مزيفا، من مظاهره الأساسية «المثل الأعلى الزهدي» و«الشعور بالذنب» و«الشفقة»، وهي كذلك من مقومات انحطاط الحياة.

وأما التقويم بالمعنى الثاني - الإيجابي- فهو يثبت الحياة بواسطة تحطيم قيم الانحطاط، ولعل ذلك ما نعنيه بالمرور من العدمية السالبة إلى الوجه الإيجابي للعدمية حيث يسعى الإنسان إلى خلق قيمه الجديدة بنفسه.

ثم حاولنا في لحظة موالية أن نربط بين «التقويم» و«إرادة القوة» حيث أفردنا جزءا خاصا لتحليل معنى «إرادة القوة» عند نيتشه، فتبين لنا أن هذه المقولة هي أساس الفلسفة النيتشوية بإطلاق، وهي مصدر كل تقويم، فإرادة القوة هي الحياة نفسها، وهي من جهة أخرى، إرادة هيمنة وتحكم ونفوذ ولعلها كذلك البذرة الأساسية للإبداع والخلق لدى كل كائن حي.

ولقد بينا كذلك في هذا الاتجاه، أن «إرادة القوة» نفسها ترتبط بنمطين مختلفين من الحياة، حياة النفي، وحياة الإثبات. وإن «إرادة القوة» هذه في علاقتها بنفي الحياة، تحرك الكائنات الضعيفة نحو خلق قيم مخالفة لقيم الأقوياء منتجة بذلك حياة جديدة، ولكنها حياة منحطة في جوهرها.

وأهم ما يميز هذه الحياة هي الأخلاق السائدة التي يعتبرها نيتشه عرضا من أعراض الانحطاط. وهناك نوع ثان من «إرادة القوة» يرتبط بالعنصر الإثباتي في الحياة، فتصبح هذه الإرادة بمثابة إرادة للحياة،

غايتها الأساسية الرقي بالحياة والصعود بها إلى أقصى درجات القوة.

إن «إرادة القوة» بمعناها الإثباتي تحيل لدى نيتشه إلى فعل تجاوز الذات لذاتها.

ولقد حاولنا في مستوى آخر من بحثنا أن نبيّن أن خلق القيم لدى نيتشه هو الفعل الأخلاقي الأول، ولعل محاولة فيلسوفنا نقد القيم الأخلاقية السائدة لا يمكنها أن تنفي عنه مطلقا صفة «فيلسوف الأخلاق».

ولعل فلسفته الأخلاقية الجديدة قوامها المفاضلة بين الأشياء وتثمينها بحسب سلم للقيم ينبع من الإنسان نفسه ولا يتعالى عليه بأية حال من الأحوال، إذ أن الإنسان هو مصدر القيم، يشرعها ويخضع لها في نفس الوقت.

ولقد سعينا بعد ذلك إلى النظر في مسألة تشريع القيم، فبدا لنا أن المسألة مركزية في فلسفة نيتشه لأنها تحدد لنا نوعية الحياة التي يحياها الكائن، فإما أن يكون التشريع نابعا من الضعفاء والمنحطين فنكون إزاء أخلاق العبيد، أخلاق الضعف والانحطاط التي تحتقر الحياة وتعاديها، وإما أن يكون التشريع نابعا من الأقوياء فنكون إزاء أخلاق السادة، أخلاق القوة والأرستقراطية التي تعلي من شان الحياة وتثبتها.

ولقد بينا بعد ذلك أن فلسفة نيتشه تقوم على حركة نقدية واضحة تجاه ما سميناه «قيم ضد الحياة»، ومن بين هذه القيم التي يسعى فيلسوفنا إلى فضحها وكشف مكامن الزيف فيها، قيمة الشفقة،

وهي قيمة تنبع لا محالة من«إرادة قوة» تنزع إلى النفي والحطّ من قيمة الحياة، إذ أن الشفقة من المنظور النيتشوي تختلف كليا عن الشفقة من منظور شوبنهاور، إذ أن نيتشه يعتبرها نوعا من التسامح تجاه الضعف والانحطاط وحفظا للحياة المريضة.

ولقد سعينا من جهة أخرى إلى التأكيد على النقد النيتشوي للقيم الدينية وخاصة منها القيم المسيحية بما هي قيم مضادة للحياة كذلك، إذ أن الديانة المسيحية أنتجت عبر تاريخها الطويل قيما حاقدة على الحياة، تحط من شأنها وتنادي بالزهد فيها عبر كره الجسد واحتقاره ونبذ الغرائز والشهوات والتبشير بوجود «عوالم أخرى» أفضل من العالم الأرضي.

وفي خاتمة أبواب هذا البحث، كان لزاما علينا إفراد جانب منه للحديث عن المشروع النيتشوي المنبثق عن هذه الحركة النقدية التي وجهها فيلسوفنا إلى قيم عصره، وهذا المشروع يتمثل في «قلب كل القيم». فكان نيتشه، بهذا المعنى، يدعو إلى تحويل القيم السائدة إلى قيم جديدة تناصر الحياة وتلغي كل أشكال الضعف والانحطاط، ولا يتم هذا المشروع إلا عبر ظهور «الإنسان الأرقى» الذي يختلف جوهريا عن الإنسان العادي، إنسان الحضارة الغربية الذي رضي بما كتبت له الأقدار.

إن «الإنسان الأرقى» هو نبي نيتشه المنتظر الذي لن يهدينا إلى «العالم الآخر» عالم السماء والغيب، بل إنه سيهدينا إلى خير السبل المؤدية إلى الحياة القوية، الحياة التي تنتصر لقيم القوة والاقتدار،

وترفض في المقابل كل أشكال الضعف والانحلال، حتى أنها تعتبر في المنظور النيتشوي عملية انتقاء متواصلة للكائنات التي لا يبقى منها في الأخير إلا ما كان صالحا للحياة وقادرا عليها في نفس الوقت.

وإن هذه النقطة بالذات جعلتنا، ونحن نباشر النظر في الآثار النيتشوية، نتساءل إن كان نيتشه بفلسفته في الحياة والقيم على هذا النحو، فيلسوفا إنسانيا منتجا لفكر إنساني يهم كل الفئات البشرية أم أنه مفكر أرستقراطي يوجه عصارة فكره إلى نخبة معينة حبتها الطبيعة بكل أسباب القوة؟.

وإذا ما ذهبنا في اتجاه اعتبار فيلسوفنا مفكرا أرستقراطيا، ألا يكون من الأجدر القول بأن الفكر الأرستقراطي النخبوي نفسه يمكن أن يكون عونا وسندا للفئات الضعيفة والمنحطة حتى تقتلع لها مكانا في «الحياة الجديدة» على المقاس النيتشوي؟

في معنى الحياة عند نيتشه

إننا في محاولة تعريفنا للحياة لدى نيتشه لا نكاد نعثر على معنى مخصوص وتعريف صارم أو نهائي لها، ولكننا في المقابل نجد وجهة نظر للحياة مبثوثة في معظم أعمال الفيلسوف سنحاول تتبع خيطها الهادي أملا في بلورة أهم ملامحها.

وفي هذا الاتجاه يمكن أن نكتشف وجهة نظره من خلال النزعة النقدية الرافضة التي أبداها ضد كل النظريات الفكرية التي حاولت تعريف الحياة فبدا لنا أن نيتشه نفسه لا يقبل بإعطاء تعريف لها، فكأن الحياة ليست موضوعا للمعرفة.

إن هذا بالضبط ما يعيبه على روح العصر، هذه الروح التي اتسمت بغلبة الطابع المعرفي على الطابع الحياتي نفسه.

فالمشكلة لديه أننا نعيش في عصر تتكاثر فيه مفاهيم عديدة للحياة وتتنوّع وتتقاطع إلى درجة كبيرة حتّى أنّنا يمكننا اعتبار هذا العصر أكثر العصور الموسومة بالطابع المعرفي حول الحياة ولأجل ذلك يعتبره نيتشه أكثر العصور مرضا من غيره، وهو عصر لا ينقطع

عن التألم من الشرور والتشوهات التي أحدثتها له هذه النزعات الفكرية التي تروم تكوين معرفة بالحياة[1] في حين أن الإغريق مثلا جعلوا الحياة مجال عيش لا مجال تفكير[2].

إن التفوق ميزة الإغريق وليس ميزة العصر الحديث، ذلك أنهم حولوا مركز الاهتمام من المعرفة إلى الحياة نفسها، إذ أن الإنسان الهيلينستي كان يعبر من خلال طقوسه عن جملة من الرموز تتعلق بالحياة الأبدية والعود الأبدي للحياة، هذا المستقبل الموعود بما هو إثبات للحياة وتجاوز للموت، هذه الحياة الحقيقية التي تكون بمثابة امتداد جماعي عن طريق الصنع والخلق والطقوس الجنسية.

ومن أجل ذلك كان الرمز الجنسي عندهم هو الرمز الحقيقي بإطلاق، إنه يتميز بالعمق، فكل جزئيات الأفعال المتعلقة بالتكون والحمل والولادة تنعش كل المشاعر الراقية والسامية.

ففي كل تلك الطقوس كان الألم علامة التضحية، فحالة المخاض تجعل من هذا الألم ألما مقدسا وأكثر من ذلك يعتبر نيتشه أن كل صيرورة تتطلب الألم، ولكي نضمن لأنفسنا الفرح الأبدي بالخلق وتثبت إرادة الحياة نفسها بنفسها وجب أن تكون هناك «آلام الوضع».

---

(1) Nietzsche.F. La volonté de puissance. § 122.P 52. Trd. Bianquis tome II. Gallimard 1937 .

(2) Ibid. § 154. P.60

إن الرمزية الإغريقية من هذه الوجهة هي أرقى أنواع الرمزية لأنها تتعلق بالأفراح الديونيازية، فهي تعبر عن أعمق غريزة للحياة، تلك الحياة التي تتوق بلا هوادة لأن تكون أبدية وخالدة، فيجري التعبير عن هذا التوق بطرق دينية، ولكنه صوت الحياة نفسه، صوت الخلق والصنع وقد صار صوتا مقدسا[1].

ولكن خارج هذا الفهم الإغريقي للحياة بما هي إحياء للأفراح الديونيازية، نجد أن الإنسانية لا تنقطع عن إعادة نفس الخطأ، إذ يلاحظ نيتشه أن الإنسان جعل من مجرد وسيلة لخدمة الحياة مقياسا لقيمتها وذلك عوض أن يبحث عن هذا المقياس في الحياة نفسها، في توهجها وقوتها، وفي مسار نموها وتعاقب لحظاتها.

لقد استخدمت هذه الوسيلة لاختزال الحياة في صورة خاصة وطرد كل الصور الأخرى، وباختصار لقد وقع نقد الحياة وانتقاؤها، وذلك يعني في نهاية الأمر أن الإنسان انتهى إلى عبادة وسائله [2].

إن نيتشه أراد من خلال هذا النقد للنزعة المعرفية للعصر الحديث، أن يبين أن كل التقييمات والأحكام على الحياة، انتصارا لها أو ضدها، لا يمكنها بأية حال من الأحوال أن تكون صحيحة إذ أنّ

(1) Nietzsche. F. le crépuscule. des idoles § 4. P 187. Trd.H.Albert. Ed. Mercure de France. Paris 1899.

(2) Nietzsche. F. La volonté de puissance. §436. P136 Tome II. Trad. . Bianquis. Gallimard 1937

التقييمات والأحكام لا قيمة لها إلاّ من حيث هي أعراض دالة على الغباء.

لذلك فإنّ قيمة الحياة لا يمكن أن تكون موضوع تقييم[1] بل إن القيمة الحقيقية للحياة تكمن في الحياة نفسها أي في عيشها فعليا، إذ الحياة لا تعرف إلا من خلال الفعل، والفعل يحدد كل ما هو حي، وفعل الحياة هو أن نحياها.

وهكذا يقف نيتشه موقفا رافضا لتلك الآراء والنظريات التي تحدد مركز الحياة في الحياة نفسها بل تجعله قائما في «الآخرة» وفي «العدم»، معتبرا أن مثل هذه الآراء تنتهي إلى سلب الحياة مركزها الحقيقي [2] وإلحاقها بحيز الضعف والخمول، والحال أن الحياة تقترن بكل معاني القوة، وجوهر الحياة نفسها هو إرادة القوة[3] أو قل إنها بمثابة إعلان للحرب على كل ما يمت بصلة للضعف والجبن. يجب النظر إلى الحياة بصفتها كفاحا متواصلا وصراعا ضد الأكاذيب وكل أنواع الخداع والزيف والوهم التي صنعتها الإنسانية عبر تاريخها[4] .

(1) Nietzsche .F. Le crépuscule des idoles. Trad. H.Albert. § 2. Ed. Mercure de France. 1899.

(2) Ibid. §43

(3) Nietzsche. F. la généalogie de la morale. Œuvres philosophiques complètes. IIéme dissertation. § 12. trad . Hildenbrand et Gratien. Gallimard . Paris 1971.

(4) بدوي عبد الرحمن.نيتشه، ص 165 وكالة المطبوعات الكويت 1975

وأكثر هذه الأكاذيب رواجا هي تلك التي أطلقها «الحكماء» على الحياة زاعمين بأنها لا تساوي شيئا، إذ كثيرا ما تداولوا نفس الأفكار والأحكام التي تحط من شأن الحياة وتقاومها وتشكك في قيمتها، وسقراط نفسه قد قال وهو يموت «أن تحيا هو أن تكون دائما مريضا»[1].

في المقابل يعتبر نيتشه أن الحياة هي الصحة الجيدة ورفض لكل أشكال المرض والوهن.

هناك نوعان من الحياة: الحياة المريضة والحياة السليمة.

وحالتنا الصحية هي إفراز لحياتنا التي نحياها، وعندما لا نستطيع مقاومة المرض، فإن ذلك في حدّ ذاته عنوان فقر في الحياة يعلن عن وجود ضعف خلقي، ولكن أن نحيا معناه أن نطرد بلا هوادة خارج ذواتنا كل شيء ينزع إلى الموت، أي أن نرفض في ذواتنا كل ما هو ضعف وتهرّم، وأن نحيا هو أن لا نكون رحيمين مع البؤساء والشيوخ، لأن الحياة هي الصحة الجيدة وأما الصّحة السيئة فهي علامة لتلاشي الحياة، لأن الحياة ترفض المرضى، يقول نيتشه:

Il y a Partout des déchets et» des dégénérescences, c'est une des activités de la vie que d'éliminer les formes décadentes et les

(1) Nietzsche. F, le crépuscule des idoles, le problème de Socrate,§ 1, P 95, Trad H.Albert,Ed. Mercure de France,1899.

déchets [1].

إن ربط الحياة بمفهوم القوة يجعل منها لدى نيتشه نزوعا نحو السيطرة إذ أنها في وظيفتها الأساسية تستلزم ضرورة العنف والاستغلال والهدم، وهي لا تقبل أن نفكر فيها إلا على هذا النحو، لذلك فهي نوع من التوازن بين القوى وهذا التوازن لا يتحقق إلا بأفعال السيطرة هذه:

«La vie c'est le règlement d'équilibre entre des forces»[2]

وإذا كانت الحياة تعني السيطرة والسيادة والاستغلال، فإن نيتشه لا يعتقد أن الاستغلال هو سمة المجتمع المنحط أو البدائي، وإنما هو صفة ملتصقة بالحياة وتنبع أساسا من إرادة القوة، التي هي إرادة الحياة[3]، فأن نحيا هو أن نسيطر ونتحكم في كل ما هو غريب وضعيف ونضعه في صورته الحقيقية، وفي أقل الحالات أو أحسنها يجب علينا استغلاله[4] لأن الحياة لا تحيا إلا على أنقاض حياة أخرى تجعلها منطلقا للنمو ومزيد الامتلاء، «فكأن الحياة إرادة استيلاء على

---

(1) Nietzsche.F. la volonté de puissance. I .§356. Trad.Bianquis. Gallimard 1937 .

(2) Ibid. II.§91

(3) Nietzsche. F. par-delà bien et mal : Œuvres philosophiques complètes. §259.P 182.

Trad. Cornélius Heim. Gallimard1971.

(4) Ibid

الآخرين وإرادة سطو واستغلال[1].

ولكن الحياة ليست استيلاءاً واستغلالا لما هو خارج ذاتها فحسب بل هي كذلك انتصار على ذاتها بأن ترفض في ذاتها كلّ ما يسعى إلى الضّعف والموت، ومعنى هذا أنّ الحياة بما هي إرادة القوّة تبحث دون انقطاع عن كلّ ما يقاومها، فهي تستلزم الألم، فالحياة والألم عنصران لا ينفصلان وكلّما زادت المقاومة والخصومة إلاّ وأصبحت الحياة لا متناهية في اتجاه إثباتي[2].

بهذا المعنى ترتبط الحياة بالغريزة، ولكن بأيّة غريزة؟ إنّها غريزة النموّ والدّيمومة واكتمال القوى والتي يسميها نيتشه «غريزة القوّة»، وهذه الغريزة تتعطّل حيث يكون ثمّة موت واضمحلال[3].

إنّ الحياة في نظر نيتشه لا يمكنها إلاّ أن تكون هدفا في حدّ ذاتها لا مجرّد وسيلة لشيء آخر خارج ذاتها، والشيء الدّاخلي الذي يحرّكها هو القوّة نفسها، ولكن هذه القوّة تكون في حالة تطوّر ونموّ، فتصبح الحياة هي التعبير عن أشكال هذا النموّ للقوّة. وبهذا المعنى كلّما رأينا أو شعرنا بحركة ما في الجسم وجب أن نستنتج منها حياة

(1) بدوي، عبد الرحمن: نيتشه، ص 217 الكويت 1975

(2) سلوتردايك بيتر: «الإنجيل» الخامس لنيتشه: ترجمة علي مصباح – منشورات الجمل ألمانيا 2003، ص 6 .

(3) Nietzsche.F. Le crépuscule des idoles 2 : L'antéchrist § 6. P.198. Trad H. Albert.Ed.Mercure de France. 1899

خاصة لا مرئية ترتبط بها، وهذه الحياة تتعلّق بالقوّة في حركة نموّها[1].

وإنّ القوّة التي يعنيها نيتشه ليست تلك القوّة التي يتنازع بواسطتها الأحياء غريزيا من أجل البقاء مثلما يرى داروين، لأنّ هدف الحياة الأبعد ليس البقاء بل الهدف هو إرادة القوة التي لا تنزع إلى البقاء بل إلى السيادة[2].

يمكننا القول بأن نيتشه يسعى إلى بلورة معنى جديد للحياة يتجنّب قدر الإمكان إقناعنا به بواسطة الطرق الفكرية أو المنطقية خاصة وهو الذي يجعل من الحياة تجربة نحياها أكثر ممّا تكون موضوع علم ومعرفة، وهذا المعنى الجديد للحياة يجعل منها غريزة دائمة التّوق إلى التحقّق بواسطة إرادة القوّة بما هي أساس كلّ موجود حيّ.

لذلك نجد أنّ نيتشه يعلن بنفسه أنّه حريص في كلّ كتاباته على الحديث عن حياته وشخصيته، ويخبر القارئ، في سخرية واضحة، بأنّه يجهل جهلا تاما كيف يمكن أن تطرح المسائل الفكرية والمعرفية

---

(1) Nietzsche.F. la volonté de puissance § 9 + § 268. Trad. Bianquis.Tome II. Gallimard. 1937

(2) Nietzsche. F.par-delà bien et mal § 13. œuvres philosophiques complètes. Trad. Heim. Gallimard. 1971

الخالصة[1].

ولكن رغم أنّ الحياة ترفض بطبعها أن تكون موضوع تقييم أو حقلا لإطلاق الأحكام المسبقة من قبيل «الخير» أو «الشر»[2]، فهي مع ذلك تعني التقويم، من حيث أنّ الإنسان الذي يحياها لا بدّ له أن يضع قيما، ومعنى هذا أن يفاضل ويوازن ويعطي لبعض الأشياء قيمة أكبر مما يعطي لأشياء أخرى[3]. فالحياة عند نيتشه تقويم بالأساس.

إننا لا نستطيع أن نواجه الحياة بواسطة التساؤل الساذج عن قيمتها. إن السؤال : ما قيمة الحياة ؟ سؤال لا معنى له، ولا يضعنا في صميم الحياة نفسها. إن الدخول في جوهر الحياة وفهم معناها الحقيقي يقتضي منا أن نحياها. والأولى بنا أن نستبدل أسئلتنا الساذجة حول الحياة بأسئلة أخرى بديلة من قبيل :

إلى أي مدى نحن جديرون بأن نحيا ؟ وإلى أي حد يمكن للحياة أن تحتملنا ؟

إن نيتشه يتحدث عن الحياة بما هي معارضة للضعف، وهي في ذاتها تعبر عن كل ما هو قوي، وإنها كذلك إعلان دائم عن الفرح والاحتفال الذي يغمر كل كائن ينزع إلى امتلاك قدر اكبر من القوة.

---

(1) Nietzsche. F . la volonté de puissance. § 312. P 103 Trad Bianquis. Gallimard 1971

(2) Haar. Michel . Nietzsche et la métaphysique. P 171. Gallimard . 1993

(3) عبد الرحمن بدوي: نيتشه: ص 216، الكويت 1975

ولكن فيلسوفنا يتحدث كذلك عن نوع ثان من الحياة هي الحياة الضعيفة والمنحطة، وهي التي لا تسعى إلى الانتشار والتوسع، وهذه الحياة تكون مرفوضة على الدوام ومردودة على أعقابها من الحياة نفسها التي تكره الجمود والسكون.

إن الحياة التي يؤكدها نيتشه بوصفها الحياة الصاعدة، هي تلك التي تحكمها أخلاق السادة، هذه الأخلاق التي تعلي من القيم الإيجابية التي تثبت كل ما هو حيوي وتكرس حق السيطرة والاستغلال إنها حياة خلاقة ومبدعة لأنها تقرر في كل لحظة ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، دون أن تحتاج في ذلك إلى المساعدة من الخارج.

وإن مثل هذا النوع من الحياة يعبر عن الحالة الصحية الجيدة للكائن، ولأجل ذلك يكون مهددا على الدوام بالضعف والزوال ليترك مكانه لحياة منحطة تحكمها قيم ارتكاسية ضعيفة مرتبطة أشد الارتباط بالحالة الصحية السيئة للكائن [1] . إن نيتشه عندما ينقد الحياة كما تراها المسيحية أو النزعات الأخلاقية السائدة، فذلك بدافع إيمانه بان الحياة، بتلك الصفة، تسير في اتجاه الخطأ، وهو يؤكد في المقابل أن الحياة في عمقها لا أخلاقية ولا ينبغي لها إلا أن تكون كذلك. وأكثر من ذلك فإن الحياة السائدة تبدو له منسحقة بفعل النفي الداخلي الذي

(1) Nietzsche .F . Par– delà bien et mal . p 260 . Trad .Heim. Hildenbrand et Grantien . Gallimard . Paris 1971.

فرض عليها. ولأجل ذلك يعلن فيلسوفنا أن الحياة يجب أن تعاش.

لقد اعتبر نيتشه أن الحياة ضد الأخلاق، لذلك يعلن انتصار غريزة الحياة لديه على كل نزعة أخلاقية أو دينية (مسيحية) تعادي الحياة، وتبعا لذلك تقدم الفلسفة النيتشوية مشروعا جديدا لتناول مسألة القيم.

في معنى التقويم

إنّ مشروع نيتشه الأساسي يقوم على إدخال القيمة والمعنى إلى الفلسفة، ولقد أراد أن تكون فلسفة القيمة فلسفة نقدية، والمبرّر الذي يحرّك هذا المشروع هو أن كانط لم يحسن، في نظره، طرح المشكلة النقدية بتعابير القيم، فتصبح المشكلة النيتشوية متعلّقة بالبحث في قيمة القيم وفعل التقويم بما هو مصدر لهذه القيمة، بالإضافة إلى مشكلة خلق القيم.

وبهذا المعنى يصبح الفيلسوف «عالم نسابة، لا قاضي محكمة على طريقة كانط، ولا ميكانيكيا على الطريقة المنفعية»[1].

إنّ نظرة إلى الواقع تبيّن لنا أنّ كلّ القيم التي استخدمناها إلى حدّ الآن، والتي أردنا من خلالها الحكم على الأشياء وتثمينها ليست في الحقيقة إلاّ أحكاما مستمدّة من مواقفنا المنفعية تجاه تلك الأشياء نسعى من خلالها إلى تجسيد بعض أشكال السيطرة الإنسانية على

(1) جيل دولوز: نيتشه والفلسفة: ترجمة أسامة الحاج، ص 6 المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1993

العالم. ومن هنا يمكننا القول بأنّ سذاجة الإنسان هي التي تكون المنطلق لهذه المعاني والقيم التي دأبنا على منحها للأشياء[1].

ولكن نيتشه يؤكد أن الإنسان يحتاج إلى إنتاج أحكام قيمة يبرّر بواسطتها لنفسه وخاصة لمحيطه جملة أفعاله ومواقفه. ولكن العمل الفلسفي الأهمّ يتمثّل في تحديد أصل هذه القيم الأخلاقية التي يتداولها الناس في ما بينهم، وقد عبّر نيتشه عن هذه الرؤية قائلا:

«Le problème de l'origine des valeurs morales est pour moi une question de tout premier ordre, par ce que l'avenir de l'humanité en dépend ». [2]

وبالبحث في الأصل والمصدر، نتبيّن أن الأسياد كانوا دائما مصدر التقويم، إذ أنّ العبيد والعامة يخضعون في كلّ الأحوال إلى الأحكام التي يطلقها عليهم هؤلاء الأسياد، فالعبد لا يستطيع أن يحدّد القيم بنفسه بمعزل عن السيّد «الأرستقراطي»، إذ أنّ خلق القيم هو حقّ لهذا السيّد دون سواه.

وحتى بالنسبة إلى العصور الحديثة، فإنّ الإنسان العادي ينتظر

---

(1) Nietzsche. F. La volonté de puissance Tome II. § 111.B.P.47 Tard.Bianquis. Gallimard. 1937.

(2) Nietzsche. F. Ecce Homo. tard.Henri Albert. Ed.Gonthier. Paris 1971. P.109

دائما إطلاق الأحكام عليه، لكي يخضع لها غريزيا في ما بعد.[1]

وبهذا المعنى، فإنّ كلّ الأفعال الإنسانية ترتبط بأحكام قيمة، وهذه الأحكام إمّا أن تكون شخصية وإمّا أن تكون أحكاما مكتسبة من خارج الذات، مع التأكيد بأنّ الأحكام المكتسبة من الخارج هي الأكثر شيوعا.

ولكن ما يعدّ مفارقة حقيقية، هو أنّ هذه الأحكام المكتسبة من الخارج تتحوّل في نهاية الأمر، عن طريق العادة، إلى طبيعة ثانية فينا.

وأمّا حكم القيمة الشخصي فإن نيتشه يعتبره بمثابة تثمين للأشياء انطلاقا من درجة اللّذة أو الألم التي يثيرها فينا. وهذا الحكم الشخصي يعتبر نادر الوجود وإن كان في جوهره يمثّل ذواتنا وقراراتنا الخاصة بنا.[2]

وسواء كانت أحكام القيمة أحكاما شخصية أم مستقاة من الخارج، ففي الحالتين نحن إزاء موقف يربط بالضرورة بين الحياة وفعل التقويم، فحين نتحدّث عن القيمة فإنّنا نتحدّث عن الحياة نفسها، لأنّ الحياة في حدّ ذاتها تدفعنا دفعا لأنّ نحدّد القيم، بل إنّها تنمو بقدر ما نقوّم. ولكن هذا التقويم يأخذ شكلين معاكسين تجاه

---

(1) Niestzsche. F. ar-delà bien et mal. § 261. P187. Œuvres philosophiques complètes. tard Cornélius Heim. Gallimard. Paris 1971.

(2) Nietzsche. F. Aurore : œuvres philosophiques complètes : Tard.Julien Hervier. § 104.P84.Livre II. Ed.Gallimard. Paris 1970 .

الحياة: تقويم إثباتي، يثبت الحياة ويعلي من شأنها. وتقويم ناف، ينفي الحياة ويحطّ من إرادتها. وهذا يعني أنّ كلّ أخلاق تدّعي بأنّ الإله يدعو إلى محاكمة الحياة ومعاداتها، هي في حقيقة الأمر نوع من التقويم للحياة الضعيفة والمنحطّة.

إنّ التقويم بهذا المعنى، وكما نجده عند شوبنهاور هو بمثابة نفي لإرادة الحياة ينمّ عن أخلاق تحرّكها غريزة الانحطاط، وكثيرا ما نجدها مصاغة في شكل أوامر ونواهي.[1]

إنّنا لا يمكننا أن نتصور الحياة دون تقويم، فغياب هذا الفعل يرمي بالإنسانية في متاهة من العبثية المرعبة ويفرض عليها الإيمان بيقين قاتل بأنّ لا شيء يحمل قيمة. وأنّ هذا الغياب للتقويم هو أصل الأزمة المرعبة التي يعيشها العالم الحديث. فإن نفهم هو أن نقوّم، وبمعنى آخر، هو ان ننظّم العالم بحسب منظومة القيم التي بواسطتها يعبّر الكائن عن انخراطه الشخصي والفردي في الوجود[2].

وإذا كان نيتشه يربط بين معنى الكائن ومعنى الحياة فذلك لكي يبيّن أنّ الحياة تقويم، وأنّ كلّ تقويم هو رمز وجود لهذا الكائن المقوّم، ومن ثمّة إظهاره بما هو مؤسس للأشياء وناقد لها في آن واحد. فطرح مسألة قيمة القيم في الفلسفة النيتشوية يحدث انقلابا

---

(1) Nietzsche. F. Le crépuscule des idoles. Trad. Albert. § 5. P. 114. Mercure de France. 1899

(2) Granier.Jean :Nietzsche.chap I . P34.P.U.F 1985

ثنائي الأبعاد، يتعلّق الأوّل بانقلاب القيمة على ذاتها.

وأمّا الثاني فيتعلّق بانقلاب الفلسفة على نفسها. وهذا الانقلاب هو الفعل النقدي الذي يسميّه نيتشه «التفلسف بضربات المطرقة». وبهذا المعنى تكون القيم بمثابة مبادئ للفعل والفكر والحياة، ولكنّها في نفس الوقت قيم في حاجة إلى التقويم والاختبار.

وفي هذا المجال تتنزّل العبارة النيتشوية «قيمة القيم» بما هي الإطار الذي نكون فيه وجها لوجه أمام فعل الخلق والصنع لهذه القيم. فمشكل أصل القيم سرعان ما يتحوّل إلى مشكل التقويم الذي هو بدوره أصل الفلسفة النقدية [1].

وهذه الفلسفة تقوم على لحظتين مترابطتين: في الأولى نرجع كلّ شيء وكلّ أصل للشيء إلى قيم. وفي الثانية نرجع القيم إلى شيء ما يكون أصلها.

إنّ فعل التقويم يضعنا إزاء تأويل للأشياء قصد مساءلتها عن مشروعية القيم السائدة التي اقترنت بها. ولذلك نحن في حاجة إلى نقد للقيم الأخلاقية بمساءلتها عن قيمتها، ويستوجب منّا ذلك التعرّف على شروط وجودها وسيرورة نموّها والتغيّرات الطارئة عليها.

لقد اعتبرنا طويلا أنّ قيمة القيم هي بمثابة المعطى الواقعي

---

(1) Deschamps, Jacques : Introduction à une lecture de la "Généalogie de la morale" . In la généalogie de la morale (Nietzsche).Ed.Fernand Nathan, 1984

والحقيقي الذي يبقى بمنآى عن كلّ مساءلة، ودأبنا على منح الإنسان «الخيّر» قيمة عليا بالمقارنة مع الإنسان «الشرير» ولكن، ما قولنا إذا ما كان العكس صحيحا؟[1] ومن هنا فإن مهمّة الفيلسوف حسب نيتشه تتمثل في حل مشكلة القيمة فهو مدعو إلى تحديد سلم للقيم وترتيبها التفاضلي (حسب قيمة القيمة).

«Le philosophe doit résoudre le problème de la valeur, il doit déterminer la hiérarchie des valeurs[2] ».

وبهذا المعنى يعرّف الإنسان بما هو كائن يقيس ويقوّم، أو قل إنّه الحيوان المقوّم بإطلاق. إنّها مسؤولية جسيمة يلقيها نيتشه على عاتق الإنسان، وإنّ مجرّد التهرّب منها أو التنكّر لها من شأنه أن يبقيه خارج الدائرة الإنسانية.

وإنّنا نجد أن ألدّ أعداء فيلسوفنا هم أولئك الذين يحتجّون على كلّ شيء، ويريدون قلب كلّ الأشياء وتغييرها ويعتبرون كلّ الأشياء بلا قيمة، ولكنّهم في المقابل يرفضون خلق القيم[3] .

---

(1) Nietzsche.F. La généalogie de la morale. œuvres philosophiques complètes. Trad. Hildenbrand et Gratien: 1ere dissertation, dissertation § 6 P.220 Gallimard 1971

(2) Ibid. § 17. P.250

(3) Nietzsche. F. La volonté de puissance. chap III. § 360. P 113 Trad Bianquis. Gallimard. 1937.

إنّ خلق القيم بصفة شخصية يقتضي قبل كلّ شيء تحرّرا من الغيرية ومن الشعور بالتّبعية والخضوع والضعف حيث يعتقد الإنسان اعتقادا راسخا بتبعيّته المطلقة للإله وللزمن.

وهذا التحرّر يستوجب قدرا من القوّة في الإنسان باعتباره كائنا فاعلا وحرّا يتجاوز التصوّر السائد للأخلاق الذي يعتبر الأفعال خيّرة أو سيئة بطبعها. وإنّ مثل هذا التصوّر لهو من قبيل التشويه للحياة. فلا شيء له قيمة في الحياة إلاّ درجة القوّة فيها، لأنّ الحياة نفسها هي إرادة قوّة، وقد عرّف نيتشه القيمة بأنّها أكبر كميّة من القوّة التي يستطيع الإنسان أن ينتجها.[1]

وإنّنا عندما نعتبر الحياة بلا معنى ولا قيمة، فإنّ هذه الحياة تنتفي وتضمحّل، ولكن نفي الحياة والحطّ من شأنها ينتج كذلك عن اعتناقنا للقيم الميتافيزيقية والمقولات العقلية. ويمكننا، بهذا المعنى، اعتبار القيمة على غرار ما أكد عليه هيدجر، «شرط إمكان» الكائن، ونيتشه من جهته استخدام لفظ «شرط» عند حديثه عن مسألة القيم.

وإنّ ما يكون شرطا للقيمة هو إرادة القوّة حسب ما يعرّفها نيتشه، بما هي نزوع نحو الهيمنة[2] أي قدرة الكائن على التحكّم في

(1) Ibid. Chap IV . § 442. P 138

(2) Collection 10 – 18. Nietzsche aujourd'hui. centre culturel de Cerisy -
Voir aussi Heidegger. M. / salle... P 193. 194. Paris 1973-La
Nietzsche. 2éme volume. trad. Klossowski. Paris 1971.

الأشياء. والقيمة التي نمنحها لشيء ما بإطلاق حكم عليه هي في الحقيقة تحديد له، فحكم القيمة هو نوع من العنف الذي نسلّطه على الأشياء لكي نسيطر عليها ونتحكّم فيها. وإنّ الحياة في حدّ ذاتها لا تتحقّق إلاّ بالعنف والاستغلال والهيمنة، وبهذا المعنى فالحياة تقويم متواصل:

« Vivre c'est évaluer »[1]، إنّ التقويم بوجه من الوجوه، نوع من التأويل للأشياء، بمعنى أنّ الذات تقف منها موقفا خاصا. فأن نقوّم هو أن نرى الأشياء من زاوية نظرنا ونضع أنفسنا سندا لهذه الأشياء. فعن طريق التقويم تفقد الأشياء خاصيتها الأولى المعطاة لنستعيد التفكير فيها من جديد ونعيد تأسيسها، وهذا في حدّ ذاته تأويل لها بمعنى تقديم وجهة نظر حولها.

وما يمكن أن نلاحظه في مسألة تحديد أصل هذه القيم التي ترتبط بالحياة ارتباطا يعسر فكّه، هو أنّ نيتشه يستبعد كلّيا أن يكون مصدرها الوعي والعقل والإدراك بل يحدّد هذا المصدر في الغريزة المعبّرة عن القوى الحيوية في الكائن، وبهذا المعنى تعطى كلّ الأهميّة للجسد أكثر من الوعي والعقل في عملية التقويم، إذ أنّ الجسد بأبعاده اللاّواعية وبكلّ عمليّاته المعقّدة مثل الحكم والتخيّل وخلق القيم هو

---

(1) Nietzsche. F . La volonté de puissance. II § 29. Gallimard. 1937 Trad Bianquis.

أكثر كمالا من الفكر الواعي المتعلّق بالأنا.[1]

ومن خلال هذا التأكيد النيتشوي على ضرورة ربط المسألة القيمية بحقل الغريزة يتأكّد لديه أنّ تعريف القيم من وجهة نظر أخلاقية صرف لا يؤدي بنا إلاّ إلى نوع من العدمية، وذلك هو بالضبط الخطر الذي يهدّد الحضارة الأوروبية، إذ أنّ الإنسان الأوروبي الحديث يعتقد أنّ بإمكانه بناء مشروعه القيمي تحت غطاء أخلاقي خالص وإن كان مع ذلك متحرّرا من كلّ نزعة دينية.

ورغم أن العدمية في المنظور النيتشوي تعتبر خطرا يهدّد الحياة ويسلبها المعنى والقيمة، فإنّنا مع ذلك يمكننا اعتبارها مرحلة ضروريّة في تفكيرنا في مسألة القيمة، ذلك لأنّ العدمية هي أساس قيمنا الأخلاقية السائدة، وهي المرجعية المنطقية لوجودها. فلا بدّ إذن من أن نمرّ بالعدمية لكي نكتشف القيمة الحقيقية للقيم.[2]

إنّ التقويم حركة تتراوح بين النفي والهدم حينا، والبناء والإثبات حينا آخر، ولكن لا إثبات للحياة دون تحطيم وهدم للقيم الأخلاقية السائدة التي نكتشف شيئا فشيئا عدم مشروعيتها. وإنّ أولئك الذين اكتشفوا ما يسمّى «بالأخلاق» اكتشفوا في نفس الوقت لا قيمة كلّ

(1) Ibid. I . § 276. » Le génie réside dans l'instinct. la bonté aussi. Il n'y a d'acte parfait que l'acte instinctif » .

(2) Nietzsche. F : La volonté de puissance. § 9. P 15 Gallimard. 1937 Trad Bianquis .

القيم التي نعتقد فيها[1].

أفلا يمكن أن تكون قيمة كلّ شيء قيمة خاطئة؟ أليس من الأفضل أن نعتقد في وجود إله ليس لأنّه حقيقة وإنّما لأنّه خطأ؟ من يدري لعلّ الكذب والتزييف وكلّ أشكال الكنايات والاستعارات هي في حدّ ذاتها قيمة ومعنى وغاية !

(1) Nietzsche. F. Ecce Homo. P 165. Trad.Henri Albert.Ed.Gonthier. Paris 1971.

التقويم والحياة

أ- التقويم والعدمية:

إنّ الحديث عن علاقة التقويم بالحياة يجعلنا نربط مسألة القيمة عند نيتشه بمسألة أخرى لا تكاد تنفصل عنها وهي مسألة العدمية، إذ أنّ هناك قيما تثبت الحياة وتعلي من شأنها وقيما تنكسها وتنفيها.

ولأجل ذلك بات من الضروري بالنسبة إلينا أن نحدّد معالم لفظ العدمية عند نيتشه، ذلك أنّ فيلسوفنا يطلقها على فعل نفي الحياة والحطّ من قيمة الوجود.

وإنّ صور هذه العدمية وأشكالها تتحدّد أساسا في الوعي المزيّف والمثل الأعلى الزّهدي والشعور بالذنب...[1]

إن القيم التي يسعى العدمي إلى تكريسها هي قيم نفي للحياة، فالعدمية في الأصل هي تعبير عن الإرادة المنحطّة، وهي تعبّر كذلك عن إرادة فاقدة للقوّة والتي تتوارى أمام قيم إثبات الحياة لتحلّ في

Deleuze .G. Nietzsche et la philosophie.P39. PUF 1967(1)

النفي، لأنّ ما يقع نفيه في العدمية هو ما يسميّه نيتشه «الحياة»، بمعنى التعدّد والصيّرورة والتناقضات والألم والشر والوهم. إنّ هذا النفي للحياة هو ما تلخّصه عبارة: «إنّ هذا العالم لا يساوي شيئا، ولا شيء له قيمة في هذا العالم»[1].

ومن هنا تضع العدمية في مقابل العالم المرفوض عالما جديدا «حقيقيا» له كلّ الخصائص المفقودة في العالم الحالي أي الثبات والهوية والسعادة والحقيقة والخير.

إنّ العدمية تعبّر عن إرادة النفي ولكنّها مع ذلك تبقى شكلا من أشكال القوّة هي القوّة الارتكاسية، فالعدمية بهذا المعنى هي إرادة القوّة ولكنّها إرادة عدم، تعادي الحياة وترفض الشروط الحقيقية للعيش.

وإنّ القوى الارتكاسية لا تصير قوى منتصرة في الواقع إلاّ إذا ما تحوّلت إلى قوى فاعلة، وفي هذه اللحظة بالذات تتحوّل القوى الفاعلة نفسها إلى قوى ارتكاسية. فصيرورة القوى كثيرا ما تأخذ منحى محزنا في الاتجاه الارتكاسي، وهذا على الأقلّ ما نشعر به حين نلاحظ في كلّ مكان انتصار القوى الارتكاسية. وإنّ هذا النصر يتمّ أساسا عن طريق إرادة العدم والنفي بما هو صفة لإرادة القوّة.

ولكن لا ننسى في المقابل أنّ نيتشه يجد في القوى الارتكاسية

(1) Haar.M. Nietzsche et la métaphysique. P.32. Gallimard. 1993 : «Ce monde-ci ne vaut rien et rien ne vaut en ce monde».

نفسها أشياء مثيرة للاهتمام ونافعة للحياة، ففي الإنسان الارتكاسي نفسه قد نكتشف قدرات غامضة وهذا الازدواج نجده لدى فيلسوفنا في أكثر من موضع[1] .

إنّ قيمتي الخير والشرّ تستمدّان أهمّيتهما، في الأخلاق السائدة، لا من الفعل والإرادة بل من الامتناع عن الفعل، لا من الإثبات بل من النفي.

ولكن نيتشه يعتبر أنّ هاتين القيمتين تخفيان النزعة العدمية المتمثّلة في الحقد على الحياة وعلى كل ما هو فاعل ومثبت فيها حتى أنّنا صرنا نستنتج أنّ البائسين والفقراء والضعفاء والعبيد هم الطيّبون، وانّ الأقوياء «خبثاء» و«ماكرون». بهذا المعنى أنتج العدمي أحكاما من قبيل «التعيس الطيّب» و«الضعيف الطيّب»[2]

إنّ مثل هذه الأحكام تضعنا إزاء جملة من الأوهام، والوهم يفترض الحطّ من القيمة، فالحياة عند العدمي تصبح بكاملها وهمية وتأخذ قيمة عدم، وإن طريق الوهم هو أن نحطّ من قيمة الحياة بل

---

(1) Voir Nietzsche . F. La généalogie de la morale : I. § 6 + III. § 15) + I . § 7. Trad. Hildenbrand et Gratien. Fernand Nathan. 1984 .

يقول نيتشه: «ربّما كان تاريخ البشرية، والحق يقال، شيئا أخرق للغاية من دون الرّوح التي أحياه بها العاجزون» أصل الأخلاق، I، §7 .
ترجمة: أسامة الحاج: بيروت 1993 (ورد في كتاب دولوز: نيتشه والفلسفة).

(2) جيل دولوز: نيتشه والفلسفة. ترجمة أسامة الحاج ص 156، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع – بيروت 1993.

ونفيها.

ولكن العدمية تبقى مع ذلك صفة من صفات إرادة القوّة بما هي إرادة نفي أو إرادة عدم تعبّر عن نفسها بإنتاج قيم عُليا.

إنّ القيم التي يصنعها العدمي هي قيم الضعف، قيم العبيد الذين يثورون على قيم الأرستقراطية، ولمّا كانوا ضعافا فإنّهم يخلقون قيما جديدة مخالفة يحوّلون بها الشرّ إلى خير والخير إلى شرّ، فالرجل الخيّر لديهم لم يعد القويّ المحارب الشجاع، المغامر، بل يصبح ذلك المسالم، الوديع، المتواضع، هو ذلك الذي يزدري الحياة ويحتقرها.[1]

وإنّ مصدر هذه القيم التي يضعها العبيد هو الشعور بالعجز وخاصة الحقد الدّفين على الأقوياء الأرستقراطيين والنبلاء. وهذا الحقد هو الذي يتحوّل إلى قدرة على خلق القيم الأخلاقية.

ويذهب نيتشه إلى أبعد من ذلك ملاحظا أن سبب الانحلال الأوروبي وما تعانيه الإنسانية على مرّ العصور يرجع في حقيقة الأمر إلى انتصار القيم الأخلاقية الصادرة عن العبيد على حساب قيم السادة والأقوياء، فيتحوّل العجز إلى فضيلة والقوّة إلى شرّ[2].

وبهذا المعنى بالذات كان شوبنهاور، من وجهة نظر نيتشه، عدوّ الحياة لأنّ قيمة الشفقة بما هي قيمة الضّعف والانحطاط تحوّلت لديه

---

(1) عبد الرحمن بدوي : نيتشه، ص: 176، وكالة المطبوعات، بيروت 1975

(2) نفس المرجع، ص 192.

إلى فضيلة عليا. وحتّى كانط لم يكن أحسن حظاً من شوبنهاور حين أكدّ على فكرة أنّ الفضيلة لا تستمدّ قيمتها إلاّ من الاحترام للفضيلة بما هي فكرة. إنّ الفضيلة بهذا المعنى الكانطي يمثّل وجودها خطرا حقيقيًا، «فالفضيلة» و«الواجب» و«الخير في ذاته» ليست إلاّ علامات انحطاط وإضعاف للحياة.[1]

لقد أكّد نيتشه على أنّ العدمية تؤلف مع النزعة التشاؤمية خليطا من انعدام الذّوق والارتباك، ويتجلّى ذلك خاصة في فلسفة شوبنهاور والتي تريد تأكيد انتصار اللاّوجود على الوجود، ومن ثمّة تحطيم إرادة الحياة بأفكار مستنسخة من التعاليم البوذية.

فالإرادة بهذا المعنى هي إرادة نفي، وهي نوع من إرادة القوّة، ولكنها يجب أن تصنّف ضمن تعبيرات الضعف لأنّها تجسّد إرادة قوّة سلبيّة تبحث عن الحطّ من قيمة الحياة وتحطيمها، إنّها إرادة قوّة مغتربة فقدت هدفها الأصلي. وبهذا المعنى نجد أنفسنا أمام إرادتين متقابلتين، «إرادة العدم» و«إرادة الحياة»، فالأولى تحطيم للحياة والثانية إعلاء لها.[2]

إنّ منطق العدمية يتجه حسب نيتشه إلى اعتبار الحياة بلا قيمة، بل إنّه يسعى إلى إفقاد الحياة قيمتها ومعناها، فالعدمي يقرّ بأنّ العالم

---

(1) F . Le crépuscule des idoles. Trad. Henri Albert. § 11. P .Nietzsche 203. Mercure de France. Paris 1899.

(2) Granier. Jean. Que sais-je ? Nietzsche. P 105. 107. PUF. 1985

كما هو كان من الأفضل ألاّ يوجد، وأنّ العالم كما ينبغي أن يكون لا وجود له، فأن نحيا إذن هو أمر لا معنى له.[1]

وهكذا فبدفعنا لمنطق التشاؤم إلى أقصى مداه العدمي سنكتشف بالضرورة غيابا كليا للقيمة والمعنى.

وإنّ أصحاب النزعة التشاؤمية يردّدون دائما أن مجموع الشرور تتجاوز مجموع الأفعال الخيّرة، ومن هنا كان من الأحسن أن لا يوجد العالم حتّى لا يسبّب آلاما مضاعفة للكائنات الحيّة.

ولكن هذه النزعة التشاؤمية تجاه الحياة لا تبقي للإرادة الإنسانية المثبتة شيئا، بل على العكس تتحوّل هي نفسها إلى إرادة منحطّة ترفض قبول الشروط الأساسية للحياة. ولعلّ ذلك ما جعل نيتشه يؤكد على أنّ الإنسان قد يفضّل أن تتملكه إرادة العدم على أن لا يريد شيئا على الإطلاق.[2]

إنّ النظرة التشاؤمية للحياة تنبع أساسا من كوننا نطلق أحكامنا تجاهها انطلاقا من شعور اللّذة أو الألم دون سواهما والحال أنّ هذه

---

(1) «Un nihiliste est un homme qui juge que le monde tel qu'il est ne devrait pas exister et que le monde tel qu'il devrait être n'existe pas»: Nietzsche: La volonté de puissance. Introduction. A. P.10 Trad Bianquis Gallimard. 1937 .

(2) Nietzsche . F. La généalogie de la morale. Troisième dissertation Fernand Nathan. 1984.

الأنـواع مـن الأحكـام لا تضـع فـي حسـابها أيـة غايـة أخـرى عـدا الانطباعـات المرتبطـة باللّـذة والألـم، ممّـا لا يتـرك أي مجـال لـلإرادة والمعنى والقصد. ومن أجل ذلك يعتبر نيتشه أنّ قيمة الحياة لا تقاس بلواحقهـا، ولكـن يمكـن القـول في المقابـل بـأنّ الألـم يمكـن أن يكـون مفيدا إذا لم يقصِ الإرادة وإثبات الحياة[1] .

وبهذا المعنى يمكننا أن نتحدّث عن ضربين من العدمية، الأولى عدميـة فاعلـة (Nihilisme actif) تعبّـر عـن ازديـاد القـوّة لـدى الكـائن، والثانية عدمية سالبة (Nihilisme Passif) تعبّر عن تراجع القوّة لديه.

وقد راهن نيتشه كثيرا على هذه الازدواجية، فالعدمية تمثّل في الأصـل حالـة مرضـية، لأنّ القـول بـأن لا شـيء يحمـل معنـى هـو بمثابـة مرض. إنّ الفكرة القائلة بان لا وجود للحقيقة ولا وجود لطبيعة مطلقة للأشـياء أو لوجـود «الشـيء فـي حـدّ ذاتـه» « Chose en soi» تعبّـر فـي جوهرها عن المدى الأقصى للعدمية.

إنّ العدمية تجعل قيمة الأشياء منحصرة في هذا التسليم بأنّه لا يوجد أيّ واقـع مطـابق لهـذه القـيم، ولكـن فـي المقابـل، سـتكون هـذه القـيم بمثابـة علامـات قـوّة لـدى مـن يبـدعها لأنّهـا تمثّـل اختـزالا نافعـا

(1) Nietzsche. F. La volonté de puissance. chap IV. P 125 Trad Bianquis. Mercure de France. Paris 1899: «La prépondérance de la douleur serait possible. qu'elle n'exclurait pas un vouloir puissant. une affirmation de la vie. on peut avoir besoin de cette prépondérance ».

للحياة[1].

وفي هذا المستوى بالذّات يتحدّث نيتشه عن القيم المنفعية التي يخلقها العبيد، إذ أنّ العبد ينظر نظرة احتقار وازدراء لفضائل وقيم السيّد القويّ وينظر إليها نظرة حذر وريبة باعتبارها تهدّد مصالحه ومنافعه الشخصية.

وفي مقابل هذه القيم الأرستقراطية يسعى العبد إلى تمجيد قيم الضعف والجبن على غرار الشفقة وخدمة الآخر والغيرية ويفضّل الرّكون إلى العاطفة وتثمين الصبر بوصفه قيمة عليا، ذلك أنّه يحتاج إلى هذه القيم من حيث هي قيم منفعية، بل أكثر من ذلك إنّها تمثّل بالنسبة إليه الجرعات الضرورية لتحمّل ثقل الوجود. إنّ نيتشه يعتبر أن أخلاق العبيد هي بالأساس أخلاق منفعية.[2]

وإنّ من يسعى إلى احتقار الغرائز الأكثر قوّة وحيوية والمرتبطة ارتباطا ضرورياً بالحياة، مثلما يفعل العبيد، هو في الحقيقة يعترف ضمنيا بقيم الانحطاط المتمثّلة أساسا في «القيمة في ذاتها» (La valeur en soi) و«الغيرية» و«التسامح» و«حبّ الغير»...

---

(1) Nietzsche. F. La volonté de puissance. § 112. P 48 Trad Bianquis. Mercure de France. Paris 1899.

(2) Nietzsche. F. Par-delà bien et mal. Trad. Heim. œuvres philosophiques complètes § 260. P 185. Gallimard. 1971 : «La morale des esclaves est essentiellement une morale utilitaire».

وتعتبر هذه القيم المنحطّة، من وجهة نظر نيتشه، العلامة الأصلية للنّفاق الأخلاقي الذي يعدّ عند العبيد طريقة مثلى للتميّز أخلاقيا، وهذا التميّز لا يتمّ إلاّ عن طريق فضائل «القطيع»، فالشفقة وحبّ الغير مثلا هي من الفضائل التي لا يعترف بها خارج «القطيع».(1)

إنّنا نعرف جيّدا أن نيتشه أخذ على عاتقه الاهتمام بمسألة العدمية ولكن ذلك كان بهدف التوسّع في تحليلها في مرحلة أولى، ومجابهتها في مرحلة ثانية، وتجاوزها في مرحلة أخيرة. والنزعة اللاأخلاقية لدى فيلسوفنا لا تهدف في حقيقة الأمر إلى تحطيم كلّ إمكانية للأخلاق، بل تنزع أساسا إلى رفض الأحكام المسبّقة لأخلاق الانحطاط والسلبيّة.(2)

إنّ الاهتمام النيتشوي بالعدمية بما هي مرحلة انتقالية، من شأنه أن يهيّئ الفضاء أو يحرّره من القيم المنحطّة حتى يصبح قابلا لظهور قيم جديدة عن طريق «عدمية فاعلة» تحلّ محلّ «عدمية سالبة» ومهمتّها الأساسية هي إثارة النفوس الحرّة ودفعها لخلق القيم البديلة. فالعدمية من هذه الزاوية هي غروب وفجر في نفس الوقت، فهي تعلن عن انتهاء حقبة وبروز أخرى تتميّز بسيادة «الإنسان الأرقى» القادر

---

(1) Nietzsche. F. La volonté de puissance. § 242. P 84. Trad Bianquis. Mercure de France. Paris 1899

(2) Haar. Michel. Nietzsche et la métaphysique. P 18. Gallimard. 1993

على خلق قيم جديدة، قيم تثبت الحياة وتعلو بها إلى أقصى حدودها.[1]

ب- التقويم بما هو إثبات للحياة:

لقد مثّلت العدمية المفهوم الأكثر تعبيرا عن محدودية الحقيقة والواقع والمشككة في العقل نفسه. فالعدمية كشفت عن غياب الأهداف التي تسمح بإعطاء معنى للحياة الإنسانية.

لذلك فإنّ الحلّ النيتشوي للخروج من حالة غياب المعنى هذه هو معايشة الوجه الإيجابي للعدمية والمتمثّل في تحطيم القيم التقليدية وذلك عن طريق خلق عالم جديد بقيم جديدة تسعى في جوهرها إلى إثبات الحياة وتأكيدها عوض عن الحطّ من قيمتها وتحقيرها، وإنّ هذا المسعى لا يتأكّد إلاّ بالإيمان بوجود طينة من الناس أرقى وأسمى من الموجود بإمكانها الاضطلاع بعبئ خلق القيم.

ويلاحظ نيتشه تبعا لذلك انّه عندما يبدأ الناس البسطاء في الشكّ في وجود بشر من طينة أرقى، فتلك الطامة الكبرى، لأنّ حينها سيعتقد هؤلاء أنّه حتّى لدى الحثالى والمنحطّين توجد الفضائل، وأنّنا جميعا متساوون أمام الإله، ولكن هذا الاعتقاد هو منتهى الحماقة على وجه

(1) Le point (Hors-série n° 15). François Gauvin. Septembre – Octobre. 2007 : «Le nihilisme est ainsi crépuscule et aurore : il marque la fin d'un temps et prépare une nouvelle ère. celle du «Surhomme» celle des hommes qui pourront enfin créer de nouvelles valeurs ».

الأرض.[1]

يدعو نيتشه إلى ضرورة خلق قيم جديدة تكون ذات طابع إنساني، وتعمل جاهدة على تخليصنا من قبضة القيم الدينية والاجتماعية السائدة التي كبّلتنا طوال عمر البشرية.

لذلك يجب أن نعلن الحرب على التصوّر المسيحي للقيم، هذا التصوّر العدمي الذي يسلب الحياة كلّ قيمة مفترضة ويقدّم نفسه في أشكال عدّة: في علم الاجتماع الحديث أو في الموسيقى الحديثة وفي كلّ النزعات التشاؤمية للعصر الحديث. ولكن يجب أن نعلن في المقابل أن لا وجود إلاّ لتصوّر وحيد للقيمة يكون صحيحا ومقبولا وهو ذلك الذي يساهم في الرّقي بالنوع الإنساني إلى أعلى درجة.

ولكن نيتشه يلاحظ أنّ الإنسان ينطلق في تحمّل مسؤوليته والاضطلاع بمهمته في خلق القيم ومواجهة كلّ ما يجابهه من أحداث وما يلاقي من آلام، منذ اللحظة التي يكفّ فيها عن الاعتقاد في وجود إله ويطرح من ذهنه فكرة مصير الإنسان المحتوم في العالم الآخر (L'au-delà) [2]. ففي اللحظة التي يكون فيها الإله موجودا، تزداد عزلة الإنسان حدّة ويصبح عاجزا عن تكسيرها إلاّ عبر انخراطه في عملية الخلق والصّنع. ولكن ينتبه نيتشه إلى أنّ عملية الخلق والإثبات هذه لا

---

(1) Nietzsche.F. La volonté de puissance. § 260. P.88. Trad. Bianquis. Gallimard 1937.

(2) Ibid.§ 411. 420.P 129-133.

تتمّ إلاّ في حضور الألم، لأنّ كلّ قوة لا تتمظهر إلاّ بوصفها قوّة مضادة للمقاومة، ففي كلّ فعل إنساني توجد درجة ضرورية من الألم. ولكن هذا الألم هو بمثابة عنصر إثارة للحياة ودافع لها، وهو في نفس الوقت يضاعف من إرادة القوّة[1].

إنّ إثبات الحياة يتطلّب المقاومة انطلاقا من شعور الإنسان بالقوّة تتعاظم لديه حتّى لا تترك أيّ مجال للضعف والهوان، وبهذا المعنى يصبح «الطيّب» كلّ ما يحمل الإنسان على الشعور بالقوّة، والطيبة هي إرادة القوّة أو قل هي القوّة نفسها.

أمّا الضعف فهو ميزة الإنسان الشرير. وأمّا السعادة فهي ذلك الشعور الدّاخلي بأنّ القوّة لدينا تتزايد والمقاومة تزيد وبأنّنا لسنا في حالة سلم وإنّما في حالة حرب، وأنّ هدفنا ليس تحديد الفضيلة بل تأسيس القيمة.

إنّ محبّتنا للنّاس تفرض علينا العمل جاهدين من أجل المساهمة في اندثار الضعفاء والجبناء والمنحطّين.[2] وهذا ما جعل نيتشه يعتبر أنّ القيم الحقيقية التي من شأنها إثبات الحياة هي القيم العليا التي يختصّ بها السّادة دون العبيد. فأخلاق السّادة تستمدّ أهميتها من

---

(1) Ibid . .§ 451 .P139.

(2) Nietzsche. F. Le crépuscule des idoles (II. L'Antéchrist). A2 . P.196.
Trad. Henri Albert. Mercure de France. 1899 .

إثبات الذّات، وإثبات الحياة لنفسها بنفسها[1]. فالطيّبون من وجهة نظر فيلسوفنا، هم النّبلاء والأقوياء وأصحاب المرتبة الراقية الذين يشعرون هم أنفسهم بأنّهم طيّبون، ويثمّنون أفعالهم على أنّها طيّبة، ومقياس الطيبة في أفعالهم هي أنّها معادية لكلّ ما يعتبر منحطًا وتافها وعاميا.

إنّ هؤلاء الأقوياء هم وحدهم الذين لهم الحقّ في خلق القيم وإعطاء أسماء لها خدمة لمنافعهم الحياتية.[2]

ولكن نيتشه ينبّه السّادة الأقوياء إلى أنّ إثبات الحياة يتطلّب التخلّص من الأخلاق السائدة التي تعتبر إرثا ثقيلا، على الإنسانية أن تحطّمه.

فالأخلاق، بهذا المعنى، هي العائق الكبير الذي يمنع النوع الإنساني من بلوغ درجة قصوى من القوّة، وهي أكبر الأخطار المحدقة بالإنسان[3].

إنّ مواجهة خطر الأخلاق السائدة للعبيد والضعفاء يقتضي

---

(1) La morale de maîtres, a ses racines dans une triomphante affirmation de soi, c'est une affirmation de la vie par elle-même ».

Nietzsche. F. Le crépuscule des idoles (I. Le cas Wagner). P.50

(2) Nietzsche. F. La généalogie de la morale. Trad.Hildenbrand de Gratien. 1ére dissertation. §. P.225. Gallimard. Paris 1971.

(3) «La morale serait le danger des dangers ». Nietzsche F. La généalogie de la morale. § 6. P.220.

الدخول في حرب وصراع من أجل الهيمنة. وبهذا المعنى يصبح التّقويم لدى الأرستقراطي نشاطا ينمو بصفة تلقائية، فهو لا يبحث عن الخصم إلاّ ليقول له «نعم» لإثبات ذاته في كنف الفرح الأقصى والاعتراف بالذات. إنّ التصوّر السلبي الذي يتجه التقويم الأرستقراطي تجاه ما هو منحطّ وعامي وسيء، ليس في الحقيقة سوى إثبات وتأكيد للتصوّر الإيجابي والعميق الذي يعلي من شأن الحياة والغريزة[1] .

إنّ الإنسان الفاعل والعدواني والعنيف هو الأقرب إلى العدالة من الإنسان المنفعل والسلبي، فهو الأقوى والأكثر شجاعة ونبلا، وهو علاوة على ذلك، يمتلك نظرة ثاقبة وحرّة ووعيا صائبا. إنّ نيتشه يؤكد، تبعا لذلك، أنّ أفعال الاغتصاب والاستغلال والتحطيم لا يمكن أن تكون أفعالا غير عادلة، لأنّها تعتبر من وظائف الحياة الأساسية، بل إنّها تعتبر من صفات الحقّ. ويذهب إلى أبعد من ذلك حين يعتبر أنّ الحقّ، من وجهة نظر بيولوجية بحتة، يرتبط بإرادة الحياة، حيث تسعى القوّة إلى التجسّد في هذه الإرادة.[2]

إنّ الأرستقراطي الذي يصنع قيم الحياة يمجّد في داخله الإنسان القويّ الذي يمتلك سلطة على ذاته، بحيث يعرف جيدا متى يتكلّم أو يصمت، هذا الإنسان الذي يجد لذّة كبيرة في أن يوجّه لنفسه أوّلا،

---

(1) «Nous les nobles, les bons, les heureux ». Ibid. § 10 . P 235.

(2) Ibid. 2éme dissertation. §11. P 268

قوته وصرامته، ولكنّه يحترم في نفس الوقت كلّ إنسان قويّ وصارم. وفي المقابل فإنّ هذا الأرستقراطي يضع الحياة، نصب عينيه، بما هي هدف أقصى لكلّ قوّة، فهي لا تتأسّس فعليا إلاّ حينما نهتم بها من حيث هي غاية في حدّ ذاتها، وأن لا نجعل أيّة غاية أخرى تسيطر على تفكيرنا.

وإنّ أكبر الغايات التي تحبط عزائمنا في مشروعنا الإثباتي تجاه الحياة هي «الحقيقة الثابتة» التي نسعى عبثا إلى البحث عنها. إنّ الحياة لا تقبل هذا المفهوم الجامد، خاصة وأنّها هي نفسها تخضع إلى تأويلات متعدّدة، وحقيقتها متجدّدة على الدّوام، لأنّ القوّة تنزع باستمرار إلى إرادة الحياة. وتبعا لذلك، فإنّ فرضية الحقيقة هي أكبر وأخطر أكذوبة عرفتها الإنسانية، فهي فرضية ضدّ الحياة، وخطرها يكمن في أنّها طرحت بما هي الحقيقة الوحيدة والمطلقة، ولمّا كانت بهذه الصفة فبوسعنا، انطلاقا منها، أن نحكم على كلّ الأشياء ومن ضمنها الحياة نفسها.

لقد بات من الضروري على الإنسانية أن تبحث عن فضاءات لم تطأها الأخلاق ولم تشوّهها بأحكامها المسبقة، لتحاول أن تؤسس علاقات جديدة مع الأشياء قائمة على تثمين البعد الحيوي فيها، بقطع النظر عن الحسابات القديمة التي سنّتها الأخلاق السائدة تجاه الخير والشرّ[1].

---

(1) Reconnaître dans la négation de la vérité la condition de la vie, voilà =

وإنّ الأبعاد الحيوية في الحياة تتأسس حسب نيتشه على معنى الغريزة بما هي العنصر الفاعل لكلّ كائن حيّ. وتبعا لذلك فالجسد لا الوعي هو الذي يوجّهنا إلى فكرة إرادة القوّة بما هي الفكرة الرئيسية للفلسفة النيتشوية، فالجسد هو الظاهرة التي من خلالها نستطيع إدراك الملامح الأساسية لإرادة القوّة بما هي المنبع الأصلي لخلق القيم المثبتة للحياة. إنّنا مدعوّون، بهذا المعنى، إلى تأويل ظاهرة الجسد تأويلا صحيحا من حيث هو أحد تمظهرات إرادة القوّة. ولعلّ الدّرس الإغريقي يتمثّل في تلك الفكرة القائلة بان لا وجود لثقافة عظيمة دون رصيد هائل من الغرائز القويّة التي نعمل على تربيتها وتوجيهها نحو السيطرة والهيمنة والخلق[1].

إنّ ما ينقصنا بالفعل هو أن نعرف كيف نحيا حياة شخصية، انطلاقا من ثرائنا الدّاخلي واحتكاما للذّة السيطرة والتحكّم التي تسكننا. وإنّ مهمتنا الأساسية ستتمثّل في اكتشاف تلك العبقرية الحقيقية التي تسكن كلّ كائن قوّي وتجعله يحدّد ذاته بصفته كائنا أرقى قادرا على قلب كلّ القيم. ولذلك يرجع نيتشه إلى ذاته ويكتشف

=

certes une dangereuse façon de s'opposer au sens des valeurs qui a généralement cours et une philosophie qui prend ce risque se situe déjà et du même coup, par-delà bien et mal ». Nietzsche, F. Par-delà bien et mal, § 4, Trad. Heim, Hildenbrand et Gratien, Gallimard, Paris, 1971 .

(1) Granier, Jean : Nietzsche, Que sais-je ? chap.IV, P 99, P.U.F. 1985

بنفسه هذه العبقرية الكامنة معلنا أنّه يخضع إلى طبيعته الديونيزية حيث لا فصل بين الفعل السلبي وعملية الإثبات وبأنّه، تبعا لذلك، «اللاأخلاقي الأوّل والمحطّم بإطلاق».[1]

إنّ نيتشه يجعل من الجسد مصدر القيم الإثباتية للحياة، لذلك يعلن أن القيمة التي يتبنّاها الأرستقراطي المحارب تنبع أساسا من لياقته البدنية القوية وحالته الصحيّة الجيّدة الخالية من الأمراض التي تضمنها له ممارسته لكلّ الأنشطة الضرورية لحفظ الذّات على غرار الحرب والصيد والرّقص والسباق، وباختصار، كلّ الأنشطة المحقّقة للحريّة والمرح.[2]

إنّ منبع القيم الحقيقية، أي الأحكام التقويمية الإثباتية ليس منبعا متعاليا أو إلهيا كما يدعي الدّين، ولا يتمثّل مصدرها في العقل الإنساني الذي يستمدّ القوانين الأخلاقية من التجربة كما تدّعيه الكانطية، بل إنّ مصدر هذه القيم هي الغرائز الكامنة في الطبيعة الإنسانية وأعظم هذه الغرائز هي غريزة السيطرة والهيمنة وإرادة القوّة.[3]

---

(1) Nietzsche. F. Ecce Homo. P 154. Trad. Henri Albert. Gonthier. Paris. 1971 .

(2) Nietzsche. F. La généalogie de la morale. § 7 . P.231. Trad.Hildenbrand et Gratien. 1ere dissertation. Gallimard. 1971.

(3) عبد الرحمن بدوي: نيتشه: ص 215، وكالة المطبوعات – الكويت 1975.

إنّ الإنسان، في نظر نيتشه، يمتلك غرائز، وكلّ غريزة تتوق إلى السيطرة والتعبير عن القوّة لدى الكائن الحيّ، وإنّ التعبير عن القوّة يتمّ عن طريق نزعة البحث عن إشباع هذه الغرائز وتحقّقها.

ويمكن القول تبعا لذلك، بأنّ أيّ نقص في الغذاء أو الإفراط فيه. بالنسبة إلى الغريزة هو الذي يحدّد مدى قوّتها وتوهّجها أو ضعفها ووهنها. وإذا كانت الأخلاق بمثابة المجال الذي نبحث فيه عن علاقات السيطرة[1]، فإنّ ذلك يعني أنّ هذه العلاقات ترتبط أشدّ الارتباط بظاهرة التغذية، حتّى أنّه يمكن القول بأنّ صحّة الحياة وعنفوانها من سلامة التغذية.

وبهذا المعنى نجد فرضية واحدة قادرة على تفسير حياتنا الغريزية، وهي اعتبار هذه الحياة تجسيدا لإرادة القوّة، بحيث نرجع كل الوظائف العضوية لهذه الإرادة، ونجد فيها كلّ الحلول لمشاكل النموّ والتغذية.

ولكن بالرجوع إلى الواقع، يكتشف نيتشه أنّنا لم نتلقّ تربية صحيحة للغرائز، بل إنّه يجد أنّ الأخلاق السائدة قاومت كلّ أشكال القوى والغرائز التي تجعل الحياة ممكنة بالفعل، بحيث ما من قوّة أو غريزة عملت على إثبات الحياة إلاّ ووجدت معارضة وصدا من الأخلاق. إنّ الأخلاق، تبعا لذلك، هي الغريزة النّافية للحياة، ولذلك

---

(1) Nietzsche. F. Par-delà bien et mal . § 19. Trad .Heim. Hildebrand et Gratien . Gallimard . Paris 1971.

فإنّ إثبات الحياة وتحريرها يتطلّب القضاء على الأخلاق.[1]

إنّ من الحلول الأساسية التي يقترحها نيتشه لتخليص الحياة من النزعة العدمية ومن قيم الضعف التي تعتريها هي فكرة العود الأبدي "L'eternel retour" فهذه الفكرة تعتبر بمثابة ايتيقا للفعل والسلوك الإنساني، من حيث هي قابلة للتطبيق العملي وحيث يتصرّف الإنسان وكأنّ المصير المحتوم لأفعاله وسلوكاته هو أن تعاد في التاريخ بنفس الكيفية التي آنجزت بها لأوّل مرّة. إنّ العود الأبدي يسمح لنا بان ننظر إلى أفعالنا في الحياة وكأنّها لن تندثر أبدا ولن تكون نسيا منسيا، بل إنّ مصيرها أن تتأبّد في الوجود. وبهذه الطريقة فإنّ العود الأبدي يجعلنا مرغمين على القبول بفكرة إعادة أفعالنا وحتى القبول بتلك الأفعال التي أرغمنا على القيام بها. وهذا يعني أننا نصبح قادرين على القبول بنوع من الضرورة التي تعتبر قاعدة أساسية للإرادة.

إنّ الإرادة التي تنزع نحو العود الأبدي هي تلك الإرادة التي ترغب في ذاتها، أي ترغب في استعادة نفسها كفعل إثباتي.[2]

إنّ العود الأبدي، حسب نيتشه، هو فكر يعطي قاعدة عملية

(1) «La morale est l'instinct négateur de la vie. Il faut détruire la morale pour libérer la vie ». Nietzsche. F. La volonté de puissance. II. § 299. Gallimard. 1937. Trad. Bianquis.

(2) «L'éternel Retour est cette volonté qui se veut elle-même. qui trouve en elle-même cette nécessité de se vouloir ». Haar. Michel. Nietzsche et la métaphysique. P.59. Gallimard. 1993.

للإرادة، لأنّه فكر ينتقي، ومن ثمّة يجعل من الإرادة شيئا كاملا يزيل منها كلّ ما يخرج عن دائرة هذا العود الأبدي، بحيث تصبح الإرادة معادلة للإبداع وحيث تكون عملية النفي نفيا للقوى الارتكاسية في حدّ ذاتها، وبفعل هذا العود الأبدي تصبح العدمية تدميرا للضعفاء[1].

إنّ الإثبات عند نيتشه حركة نقدية تستلزم الصراع مع قوى النفي، فالنموذج الفاعل لا يدلّ فقط على قوى فاعلة بل على جملة من العلاقات بين القوى المتضادة حيث تكون الغلبة للقوى الفاعلة على القوى الارتكاسية، وهكذا فإنّ «ساميا» و«نبيلا» يدلاّن عند فيلسوفنا، على تفوّق القوى الفاعلة ونزوعها نحو الإثبات[2].

وبهذا المعنى يصبح النقد في المنظور النيتشوي تدميرا فاعلا وعدوانية مرتبطة أشدّ الارتباط برغبة الإثبات، فالمبدع عدواني ومدمّر وناقد، بمعنى ناقد للقيم الارتكاسية وللانحطاط .

إنّ نيتشه لا يفصل الإثبات عن شرط أوّلي هو النفي، خاصة وأنّ الإبداع يقترن بالتدمير الفاعل، لذلك فإنّ أحد الشروط الأساسية للإثبات هو النفي والتدمير بما يحملانه من معاني التخليص والتحرير، تحرير الحياة من أثقالها وأوزارها، فالإثبات لا يعني التحمّل أو الاضطلاع بالمهام المجحفة، وإنّما هو تحرير للحياة وإزالة أحمالها، التخفيف عنها من حدّة القيم العليا والبحث لها عن قيم جديدة تجعل

---

(1) جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، ص 90 - 91، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1993.
(2) نفس المرجع، ص 110.

من الحياة أكثر خفّة وفاعلية. إنّ من معاني الإثبات هو اختراع أشكال جديدة للحياة[1] .

هكذا يجعل نيتشه من الكائن الحيّ طاقة كبيرة تعمل بلا هوادة من أجل تدمير القوى الارتكاسية، تصارع الانحطاط وتتفاعل مع القوى النافية، همّها الوحيد الوصول إلى درجة قصوى من القوّة حيث إثبات الحياة هو السّمة البارزة للفعل الإنساني، وفي هذه اللحظة بالذّات يظهر لنا نيتشه شبيها بـ «شمس الظهيرة التي تلهب وتبهر لا لشيء، إلاّ لتذكّرنا بالطاقة اللاّمتناهية التي تؤسس الحياة، الحياة الواهبة، المحتفية بسخائها إثباتيا حتّى وإن بدت الإنارة مبهرة إلى حدّ الإعماء».[2]

---

(1) المرجع نفسه، ص 236 .

(2) سلوتردايك (بيتر): الإنجيل الخامس لنيتشه، ص 6، ترجمة علي مصباح منشورات الجمل – ألمانيا 2003.

التقويم وإرادة القـوة

أ- في معنى إرادة القوة:

إذا كان التقويم بما هو إثبات للحياة يعتبر في جوهره رغبة ملحة تسكن الإنسان في تجاوز القيم السائدة وخلق قيم جديدة، فإن هذه القيم بالذات لا تنشأ إلا انطلاقا من مقولة إرادة القوة التي هي مصدر كل تقويم. إن إرادة القوة هي موضوع الفلسفة النيتشوية بإطلاق، على اعتبار أن هذه الفلسفة هي بمثابة نظرية عامة لإرادة القوة.

«Morphologie et théorie générale de la volonté de puissance.[1] »

ولما كانت فلسفة نيتشه تتعلق أساسا بالحياة من حيث هي مجال لخلق القيم، فإن هذه الفلسفة تكاد تسوي بين إرادة القوة من جهة وبين الحياة من جهة أخرى، إذ أن العالم والحياة والوجود في

---

(1) Nietzsche. F. Par –delà bien et mal. §23Trad.Heim. Hildebrand et Gratien. Gallimard Paris 1971.

الحقيقة وجوه متعددة لإرادة القوة. وجوهر الحياة نفسها هو إرادة القوة التي تعني المقدرة والرغبة التي تسكن كل شخص في أن يهيمن على الآخرين ويخضع الأشياء لسلطته[1].

إن من معاني إرادة القوة هي السيطرة والتحكم بما هما من الغايات القصوى للكائن، وبهذا المعنى فإن إرادة القوة عند نيتشه هي بالضرورة طاقة خلاقة وإبداعية، إنها مسيرة تخوضها الذات في فضاء لصنع الأشكال والصور. ولكن يمكن اعتبار كل صورة في حد ذاتها تجسيد خارجي للقوة.

ويمكن القول بأن كل خالق للصور، عند فيلسوفنا، هو شخص تسكنه القوة. وتبعا لذلك، فأن نقول بأن إرادة القوة هي إرادة الخلق والصنع، هو في حد ذاته تناول جديد لمعنى الحرية والسيطرة، يقطع مع التوجه السائد للفكر الفلسفي[2].

إن السيطرة والتحكم لا يتحققان لدى الكائن إلا بفعل تجاوز الذات لذاتها، ولفظ إرادة القوة في حد ذاته يعتبر فعل تجاوز الذات لذاتها، بمعنى الارتفاع من الأدنى إلى الأرقى، وحيث لا يكون الباعث على الارتقاء شيئا خارجيا بل يكون نابعا من الذات نفسها.

وهكذا فإن كل موجود بما هو ينطوي على إرادة القوة، فهو يسعى باستمرار إلى تجاوز ذاته. إلا أن شكل هذا التجاوز هو الذي

---

(1) Haar .Michel : Nietzsche et la Métaphysique. P.24.Gallimard 1993.

(2) . Granier Jean : Que Sais- je ?P.99-100 .P.U.F.1985

يختلف بحسب الإرادة التي تحركنا ونوعية الحياة التي ترتبط بها سموا أو انحطاطا.إن فعل تجاوز الذات لذاتها يحتمل معنيين بحسب نوعية إرادة القوة التي تقوده. يمكن القول إذن بأن هدف مفهومي القوة والضعف المستعملين في السياق الجيانولوجي النيتشوي هو تأكيد للطابع المزدوج لإرادة القوة [1] .

يمكننا اعتبار إرادة القوة مبدأ عاما للحياة إذ أن نيتشه يعمم هذه المقولة على كل ميادينها حتى أن غياب هذا المبدأ هو غياب للحياة نفسها وانتفاء لكل موجود حي. وبالتوازي مع ذلك فإن أي احتقار للقوة وازدراء استخدامها هو أمر مخالف لمبدأ الحياة العضوية[2] .

و إن كل طاقة مهما كان شكلها هي إرادة قوة، من وجهة نظر نيتشه، وهذه الإرادة تتمظهر في العالم العضوي بما هي انفعالات وغرائز وحاجات، وتبرز في العالم النفسي والفكري بصفتها رغبات وحوافز وأفكار، ونجدها كذلك في العالم اللاّعضوي نفسه حيث تبدو الحياة مجرد حالة خاصة من إرادة القوة[3] .

إن نيتشه لا يعني بالإرادة القوة النفسية كما عرّفها علماء النفس،

---

(1) Ibid.P.116.

(2) Nietzsche. F. La volonté de Puissance. Tome II. Livre III. §436.P.136 Trad.Bianquis. Gallimard.1937.

(3) Nietzsche.F.La généalogie de la morale.I. §2. Trad. Hildenbrand et Gratien . Gallimard. 1971.

بل هي نزوع الكائن إلى تجاوز ذاته نحو المزيد من القدرة والعمل على تحقيق هذا المشروع فعليا والذهاب به إلى أبعد الحدود وبهذا المعنى فإنّ إرادة القوة موجودة في كل كائن حي في النبات والحيوان والإنسان، فهي ساكنة في الغرائز والأهواء والانفعالات والإحساس والشعور، أي في كل الطاقات الحية. وأما غاية إرادة القوة فتتمثل في تحقيق المزيد من القدرة لدى الكائن بهدف السيطرة والتحكم وامتلاك وسائل الإبداع[1].

ولا يعني نيتشه بإرادة القوة كذلك الإرادة التي تريد ممارسة القوة من حيث هي غاية في حد ذاتها، فالإرادة لا ترغب في القوة من أجل القوة.

إن نيتشه ينقد الفلاسفة الذين حللوا مفهوم إرادة القوة بهذا المعنى، حيث تكون القوة هي الشيء المرغوب فيه والمفضل من قبل الإرادة. إن فلسفة الإرادة النيتشوية تدمر الميتافيزيقا القديمة، وتعلن أن فعل الإرادة هو فعل الخلق وأن الإرادة في حد ذاتها فرح يحرر الكائن عبر خلق قيم جديدة .[2]

إن السؤال الذي يمكن طرحه، في هذا المستوى، هو من أين

---

(1) يوحنّا قمير: نيتشه نبي المتفوق، ص 23، منشورات دار المشرق بيروت 1986

(2) جيل دولوز : نيتشه والفلسفة، ص 109، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1993.

تستقي إرادة القوة أحكامها؟ والتصور النيتشوي يذهب إلى اعتبار أن إرادة القوة تستجيب في الأصل إلى أوامر داخلية تتوجه إلى الكائن لان يتجاوز ذاته، فإما أن يزيد في حجم قوته ويرتفع بمرتبه، وإما أن يضمحل ويندثر، وذلك بحسب الاتجاه الذي تسلكه القوة نحو الازدياد أو التقلص، وبحسب الموقف الذي يبديه من الشروط التي تفرضها الحياة (القبول أو الرفض: نعم أولا).

فمن خلال إرادة القوة نلمس نوعين من القوة ونوعين من الحياة: القوة الفاعلة والقوة السالبة والحياة الصاعدة والحياة المنحطة.[1] إن الحياة انتقاء متواصل للأقوى والأفضل، ولكن نيتشه لا يتحدث عن الانتقاء بوصفه مسارا بيولوجيا تنتجه الطبيعة، ولا هو بجدلية تاريخية، ولكنه منهج تربية وتنشئة تخضع لها إرادة القوة بواسطة أقلية لها من القدرات والكفاءة ما يؤهلها لهذه المهمة[2].

وهذه الأقلية هي المؤهلة للقيام بالعملية النقدية المسؤولة عن تحديد أصل القيم ونبلها أو انحطاطها. ولكن أكبر صعوبة تعترض الناقد في هذا المجال هي صعوبة الإجابة عن أي سؤال يتعلق بمدى مشروعية اعتبار النبيل «أفضل» من المنحط، ما دامت إرادة القوة تتميز بصفتين متناقضتين: الإثبات والنفي. وفي هذه الحالة يمكننا التساؤل: لماذا كان الإثبات أفضل من النفي؟ في الحقيقة ليس لنا المعيار القيمي

---

(1) Haar. Michel. Nietzsche et la métaphysique. P .28 Gallimard. 1993.

(2) Granier. Jean. Que sais-je ? P.116. P.U.F. 1985

الذي يقرر لنا ذلك، يقول نيتشه «أميز نموذج حياة صاعد ونموذج انحطاط وتحلل وضعف. إذا صدقنا ذلك، لا تزال مسألة حق التصدر بين هذين النموذجين عالقة».[1]

ولكن مع ذلك يعتبر نيتشه أن الكائن يستمد قيمته من نحته لقيم حياته ووجوده، مهما كان الحكم على هذه القيم، إذ ليس الوجود إلا الحياة وليست الحياة إلا إرادة، وليست هذه الإرادة في نهاية الأمر إلا إرادة القوة..إرادة القوة هذه هي «إرادة الخطر» إذ أنها تخلق لنفسها حالة توتر دائمة، تنشد الخطر وتلح في طلبه.

وإذا كان جوهر الوجود هو إرادة القوة، فإن نيتشه ينفي أن تكون إرادة الحياة هي هدف الوجود، فالكائنات تتنازع من اجل إعلاء الحياة ونماء القوة، لا من أجل حفظ البقاء واستمراره.[2]

فعندما يؤوّل نيتشه العالم بوصفه إرادة قوة فهو ينطلق من إرث شوبنهاور الذي يتحدث عن «إرادة الحياة» ولكنه بخلاف أستاذه، لا يبحث عن تأويل العالم بأن يضع له في المقابل«واقعا حقيقيا» هو الإرادة التي تتعلق بالظواهر. إن إرادة القوة لا تختفي وراء الظواهر ولا

(1) نيتشه، إرادة القوة، القسم الثاني530، ورد في كتاب جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، ص 110، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت 1993 .

(2) عبد الرحمن بدوي: نيتشه، وكالة المطبوعات – الكويت 1975، ص 217

تختزل في مجرد إرادة للحياة، فحتى إرادة الموت هي نفسها شكل من أشكال إرادة القوة[1].

إن إرادة القوة هي صراع متواصل من الكائن ضد كل ما يقف ضد الحياة ويسعى إلى ابتلاعها، ولعل القوة المضادة للحياة بإطلاق هي الزمن، ولذلك فإن إرادة القوة، في الواقع هي جهد نيتشوي للسيطرة على الزمن، بحيث أن كل ما كان زمنيا وتاريخيا يصبح أبديا عن طريق العود الأبديL`étemel retour ، فعن طريق إرادة القوة تسعى إلى تثبيت الحياة في الزمن، وكأن الزمن يصبح البعد المطلق لإرادة القوة التي أرادت أن تصارعه وتتغلب عليه.[2]

وإذا كان صراع إرادة القوة مع الزمن هو صراع من اجل تثبيت الحياة، فإن هذه الإرادة تخوض صراعات أعظم من اجل السيادة والسيطرة.

وإن إرادة القوة تلقى في طريقها نحو تحقيق مشروعها عقبات عديدة أكبرها هو الألم الذي يكابده الكائن في مسيرته الهادفة لبلوغ المزيد من القوة والقدرة. ومن الضروري التأكيد هنا أن نيتشه لا يقف

---

(1) Gauvin. François. Le point : Hors –série n°15 . septembre – octobre 2007.

(2) بيـاربودو : نيتشـه مفتتـاً، ترجمـة أسـامة الحـاج، المؤسسـة الجامعيـة للدراسـات والنشر والتوزيع – بيروت 1996. Boudot : Nietzsche en miette

موقفا سلبيا أو معاديا للألم، فهو يعتبره مثل اللذة تماما مسلكا للإرادة لكي تحقق هدفها.

لذلك نرى فيلسوفنا يشيد بالألم الذي يجني الإنسان بتحمله الكثير من العزم والشجاعة والصبر والعمق والسمو، يقول نيتشه: «لا يبحث الإنسان عن اللذة ولا يهرب من الألم، ما يشاء الإنسان، ما يشاء أصغر جزء من الجسم الحي، هو المزيد من القدرة، وفي التوق إلى هذا الهدف نجد اللذة بقدر ما نجد الألم».[1]

إن الخير عند نيتشه هو كل ما يعلو في الإنسان عن طريق الشعور بالقوة . وأما الشر فهو ما يصدر عن الشعور بالضعف. وتبعا لذلك، فإن السعادة هي شعور الكائن بأن القوة لديه تنمو وتزداد حجما، لذلك فإن حبنا للإنسانية يفرض علينا قبل كل شيء ان نعمل على سحق الضعفاء الذين تعوزهم القوة.

إن الوجود الحقيقي هو الحياة، والحياة ليست إلا إرادة، وهذه الإرادة ليست في نهاية الأمر إلا «إرادة القوة». [2]

وإذا كان نيتشه يعتبر الحياة عملية «تقويم» متواصلة، فإن القيم التي يصنعها الإنسان هي في حقيقة الأمر مسار يسلكه الكائن وتحركه في ذلك رغبة كبيرة في الاستحواذ والسيطرة، لأن الحياة لا تكتسب

(1) نيتشه : إرادة القوة، 303 : ورد في كتاب يوحنا قمير: نيتشه نبي المتفوق، ص 26، منشورات دار المشرق – بيروت 1986.
(2) عبد الرحمن بدوي، نيتشه، ص 215، الكويت 1975.

معناها الصحيح إلا من خلال نزوعها نحو الانتشار والتوسع.

إن «إرادة الحياة» بهذا المعنى، هي إرادة السيطرة والاستغلال والاستحواذ، ولن تتحقق هذه الإرادة في الواقع، إلا إذا ما حازت على أكبر قدر من القوة.

وتبعا لذلك يمكن اعتبار «إرادة القوة» بالمعنى النيتشوي، الوسيلة الوحيدة لخلق القيم، وحتى «إرادة الخير» هي نفسها من توابع «إرادة القوة» هذه .

بل إن «إرادة الخير» لا تمثل جوهر الأشياء، بل هي مجرد نتيجة لنزعة السيطرة والاستحواذ التي تسكن الكائن.

ويمكن القول إذن، بأن الأخلاق برمتها ليست شيئا آخر سوى «العلم بأحوال السيطرة» وهي السبيل الذي يمكننا من إيجاد الوسائل المثلى لتحقيق «إرادة القوة» (1) .

إن نيتشه واجه فكرة العدم عن طريق مقولة «إرادة القوة»، وبواسطتها كذلك رفض فكرة «العبث» بما هي غاية للكون، مؤكدا من جهة أخرى، أن العالم ليس إلا عالم «علاقات القوة»، وأن لا شيء في هذا العالم ثابت، فكل شيء متحول وسائر إلى التغير، والحقيقة الوحيدة التي نعترف بها هي الصيرورة الأبدية للأشياء والتحطيم المتواصل المقترن بإعادة الخلق.

---

(1) إبراهيم عمر : جويو ضد نيتشه، مجلة «إبداع»، العدد 9، سبتمبر 2001

وإن هذا الخلق لا يتم إلا عبر تأسيس القيم، أي تأسيس المعنى، ولكن يلاحظ نيتشه أن كل المعاني لا تتساوى في ما بينها، لأن كل شيء يكتسب معناه من القوة التي تكون قادرة على حيازته والاستحواذ عليه. وهكذا فإن الشيء في حد ذاته ليس محايدا، بل يتفاعل مع القوة التي ترتبط به.[1]

ب- إرادة القوة والنفي: الانحطاط

إذا كانت إرادة القوة تتحرك ضمن اتجاهين: اتجاه إثباتي واتجاه نافي، فإن هذه الإرادة في معناها الثاني تحرك الضعفاء نحو خلق القيم ولكن في اتجاه النفي ومعارضة قيم الأقوياء. ومقولة إرادة القوة تحيل كما أسلفنا، إلى معنيين من معاني الحياة، الحياة الصاعدة والحياة المنحطة، وبهذا المعنى فهي تتجه في بعد من أبعادها إلى النفي وتأكيد قيم الانحطاط. ويعتبر نيتشه أن الفعل أو ردّ الفعل، الإيجاب أو السلب هي خاصيات للقوة، ففي علاقات القوة تكون القوى الخاضعة هي نفسها قوى فاعلة.

إن الخضوع مثله مثل السيطرة والتحكم، يكون في علاقة ما بالقوة. ورد الفعل هو مفهوم أساسي في الفلسفة النيتشوية، ذلك أن القوة الخاضعة لا تفقد بتاتا قوتها، ولكنها مرغمة على استخدامها بطريقة مختلفة.

---

(1) أنور مغيث : جيل دولوز، الأصل والمعنى عند نيتشه، مجلة «إبداع»، سبتمبر 2001.

إن نيتشه يعتبر أنّ القوى الداخلية الخاضعة تستخدم قوّتها في الأنشطة التي لا تنزع لحفظ الحياة[1] .و انطلاقا من تحليل إرادة القوة بما هي إرادة نافية لدى العبد والضعيف، يمكن اعتبار الأخلاق من هذه الزاوية، بمثابة عرض من أعراض الانحطاط لأنها تسعى إلى خلق قيم الضعف. وهذا الفضح للأخلاق الذي يقوم به نيتشه يعد اكبر تجديد وأعظم ثورة في تاريخ المعرفة.[2]

لقد بيّن فيلسوفنا أن المنحطين في حاجة كبيرة إلى الكذب الذي يعدّ أحد شروط وجودهم، وهذا الكذب يؤسس جوهر القيم الأخلاقية السائدة.

ويتساءل نيتشه عن المعنى الذي تحمله هذه المفاهيم الكاذبة والمزيفة التابعة للأخلاق مثل الروح والنفس والقدر والإله، إن لم تكن مجرد رغبة في تحطيم الإنسانية، إن إرادة القوة لدى الضعفاء تتجه إلى احتقار الجسد والغريزة وكل بعد حيوي في الكائن.

لذلك فإننا نحطم الإنسانية ونصل إلى أقصى درجات الانحطاط عندما نهمش القوى الجسدية التي تمثل أصل الحياة.[3]

---

(1) Nietzsche. F . La généalogie de la morale . Introduction de Jacques Deschamps. P . 62 : Fernand Nathan 1984. Trad. Hildenbrand et Gratien.

(2) Nietzsche. F. Ecce Homo. P. 84. Trad. Henri Albert. Gonthier. Paris .1971 .

(3) Ibid. P 111.

وبمعاداتها للجسد والغريزة فإن الأخلاق الضعيفة تنشر الحقد والكراهية تجاه السادة الأقوياء وتعمل جاهدة على احتقار إرادة القوة لديهم، بما هي إرادة تسعى نحو تحقيق المزيد من القدرة على إثبات الحياة الصاعدة. ويؤكد نيتشه تبعا لذلك، أنه في هذا العصر الحديث، ليس الإنسان الموهوب هو الذي يحدد التمثلات الجماعية، بل إن العبد هو الذي يقوم بهذه المهمة، وإنه بطبيعته مجبر على تحديد شروط وجوده عن طريق تسميات قائمة على الكذب والزيف، فمقولة مثل كرامة الإنسان أو كرامة العمل ليست في الحقيقة إلا من إنتاج العبيد[1] .

إن القاعدة الأساسية للانحطاط تتمثل في جاهزية الإنسان لأن يكون مرغما على الدوام على مقاومة الغرائز، في حين أن السعادة الحقيقية ترتبط أشد ما يكون الارتباط بالغريزة، فما دامت الحياة في صعود متواصل فإن السعادة والغريزة شيئان متطابقان.

ولكن نيتشه يلاحظ أن كل الأحكام الأخلاقية القديمة كانت متفقة على ضرورة قتل الأهواء والغرائز، وبهذا المعنى تكون الأخلاق مضادة للطبيعة.

ولذلك فإن نقتلع الغريزة من جذورها هو أن نقتلع الحياة من جذورها، وهذا بالضبط ما قامت به الكنيسة التي كانت تتبنى قيم النفي

---

(1) Nietzsche. F. La Volonté de puissance. chap. II. § 244. P. 85. Trad. Bianquis. Gallimard. 1937.

التي تعادي بها الحياة[1].

إن هذه الأخلاق المضادة للطبيعة، وهي الأخلاق السائدة في العصر الحديث والتي يقع نشرها وتعليمها على نطاق واسع، هي في الحقيقة محاكمة قاسية للغرائز والأهواء تأخذ في بعض الأحيان شكلا سريا مبطنا وفي أحيان أخرى شكلا علنيا.

غير أن نيتشه يعلن أن هذه الأحكام الأخلاقية تشترك مع الأحكام الدينية في هذا الاعتقاد بوجود واقع غير موجود أصلا. فالأخلاق ليست إلا تأويلا لبعض الظواهر، ولكنه تأويل من وجهة نظر خاطئة. إن الحكم الأخلاقي مثله مثل الحكم الديني، يصنف ضمن درجة من الجهل بحيث يبقى مفهوم الواقع غامضا، ويغيب التمييز بين الواقعي والخيالي، فتكون الحقيقة مفهوما مرادفا لما نسميه اليوم «خيالا»[2].

والأخلاق من جهتها تعتبر السادة والأقوياء بصفة عامة، بمثابة الأعداء الذين يمثلون تهديدا حقيقيا للإنسان، ولذلك يجب حماية الإنسان العامي من هؤلاء عن طريق قيم الضعف السائدة. ولكن نيتشه عندما يعالج مسألة الانحطاط ويعتبرها نوعا من المرض الاجتماعي ويشرع في تحليل أعراضها، فإن معالجته لها تنطلق من تصوره

(1) Nietzsche. F . Le crépuscule des idoles.§ 1.P. 110. Trad. Henri Albert. Mercure de France . Paris 1899.

(2) Ibid. P 126.

الفلسفي للحياة من حيث هي إرادة قوة ليصف الدواء ويعطي الحلول الممكنة[1].

إن قيم الانحطاط يسنها رجل الدين، فهو ماكر يسعى إلى التحكم في المرضى المتألمين، إنه يبدو لهم في مظهر الطبيب الذي يمتلك الوصفة الناجعة لعلاجهم، ولكنه في الواقع، يعالجهم بتلك المسكنات التي تتأسس على خنق العواطف الحيوية والغرائز وكبت كل رغبة في الحياة وتشتيت قواهم بواسطة العمل الآلي الذي يكرس الملل والرتابة ويقتل الشعور الفردي بالتميّز.[2]

وبهذه الطريقة تسعى القيم الدينية إلى المغالطة، ذلك أن المسيح يقول لنا بأن المرضى والضعفاء والفقراء هم الأشخاص السعداء بحق، ولكن الحقيقة عكس ذلك، إذ أن السعادة تكمن في القوة الساعية إلى إثبات الحياة الصاعدة. وينبه نيتشه، بالتوازي مع هذا، إلى أن النزعة الاشتراكية هي بدورها تمثل آخر تمظهر من تمظهرات ثورة العبيد، حيث نجد الغريزة تتحول إلى قوة نفي تصارع الأقوياء والأسياد في العالم.[3]

---

(1) Granier. Jean. Que sais- je ? Nietzsche. Chap. I.P. 26 P. U .F .1985.

(2) عبد الرحمن بدوي : نيتشه، ص191- 192، وكالة المطبوعات – الكويت 1975

(3) Gauvin . François. Le point : Hors- Série n° 15 . septembre- Octobre 2007.

ولكن نيتشه يؤكد كذلك أن الضعفاء أنفسهم يرتبطون بعلاقة ما بإرادة القوة، ذلك أن جيانولوجيا الأخلاق تبين إلى أي حد يكون الشعور بالذنب لدى هؤلاء، خالقا للقيم، قيم النفي والانحطاط، بل إن كل البناء الأخلاقي قائم على هذا الشعور.إن إرادة القوة لدى العبيد تخلق قيما مضادة لهذه الإرادة نفسها، إذ أن الشعور بالذنب يحول إرادة القوة إلى هدف غير هدفها، أي نحو«عالم آخر» تكون فيه كل السعادة للضعفاء والمنحطين[1].

إن نيتشه يسعى إلى تشخيص أمراض العصر الحديث فحدد أعراضه في تلك القيم المنحطة التي تسعى الأغلبية الضعيفة إلى خلقها لكي تواجه بواسطتها الأقلية القوية المقبلة على الحياة من خلال الاحتفال بالغرائز وبالأبعاد الجسدية.

لذلك فإن قيما مثل الشفقة واحتقار الذات والتواضع لهي قيم منحطة خلقها هؤلاء العبيد قصد نفي الحياة والإعلان بأن إرادة القوة أصبحت مضادة للحياة الصاعدة، تلك هي بالذات الأعراض الجلية لمرض الحضارة الأوروبية.[2]

ولكن نيتشه يعتبر، مع ذلك، أن القوة النافية هي قوة مبدعة، بما

---

(1) Ibid

(2) Nietzsche. F. La généalogie de la morale. œuvres philosophiques complètes. § 5. P.220. Trad. Hildenbrand et Gratien. Gallimard. 1971.

هي تبدع باستمرار قيم الانحطاط ونفي الحياة. فهذه القوة ليس بإمكانها أن تثبت اختلافها وتميزها، لأنها ليست قوة فاعلة بل ترد الفعل، فالنفي مساو لرد الفعل، وهي ترد الفعل تجاه القوى المسيطرة عليها، وبذلك فهي تنفي كل ما يختلف عنها.

وفي الحقيقة فإن هذا الرفض الذي تبديه تجاه المختلف هو عنوان إبداعها الخاص فهي تبدع قيم النفي باستمرار. وهكذا فإن الخير والشر مثلا، قيمتان، في نظر نيتشه، لا يقع إبداعهما من خلال الفعل بل بواسطة الامتناع عن الفعل . إنهما قيمتان لا تتعلقان بالإثبات بل بالنفي وفي الحقيقة فإن هاتين القيمتين تنمان عن حقد كبير تجاه الحياة وعلى ما هو إثباتي وفاعل فيها. وإن قيم النفي هذه تجعل من البائسين والفقراء والضعفاء والعبيد النموذج الطيب، في حين أن الأقوياء هم الخبثاء والأشرار[1].

إن هذه العدمية تقلب المعنى، ولكنها تبقى من حيث هي نفي، شكلا من أشكال إرادة القوة، فإرادة القوة هذه تبرز في الإنسان من حيث هي إرادة عدم . ويعتبر نيتشه، أنه لولا ذلك الإحساس بالخطأ والمثل الأعلى الزهدي والعدمية لما كنا على إطلاع كبير بمعنى إرادة القوة. فليست إرادة العدم مجرد إرادة قوة أوصفة لها فقط، بل هي كذلك سبب لهذه الإرادة. إن العدمية تجعلنا نتعرف إلى إرادة القوة

(1) - جيل دولوز: نيتشه والفلسفة: ص 156- 157، ترجمة أسامة الحاج المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت 1993

بصفتها تحمل فعل النفي بما هو صفة من صفات هذه الإرادة.[1]

إن النفي يسحق العالم ويحوله إلى ظاهرة مرضية، ويحط من قيمة الحياة بأسرها.

إن العنصر النافي هو السائد، ولأجل ذلك يبحث الناس عن الإثبات في الحياة وحتى في الآخرة. وبهذا المعنى فحتى الإثبات لا ينفصل عن عملية النفي[2] ولكن قيم إثبات الحياة الصاعدة أو ما يسميه نيتشه «قلب كل القيم» هو مشروع يتم إنجازه على يدي «الإنسان الأرقى» «Surhomme» الذي تبشر به الفلسفة النيتشوية. وأما في مقابل «الإنسان الأرقى» فنجد ما يسميه فيلسوفنا «الإنسان الأخير» «Le dernier homme» من حولنا في كل مكان وحيث نولي وجوهنا.

إنه نموذج الإنسان الذي يمثل الضعف في أقصى مداه. ووجوده يرمز إلى العدمية المعتنقة لقيم القطيع، وهي العدمية في شكلها السالب.[3]

ج- إرادة القوة والإثبات: إرادة الحياة:

لقد تبين لنا آنفا أن النفي بما هو صفة لإرادة القوة يتجلى بوصفه قدرة على خلق قيم الضعف والانحطاط إلى درجة يمكن فيها

---

(1) - نفس المرجع ص 221

(2) - يقول نيتشه: «أعرف فرح التدمير إلى درجة تتناسب مع قوة التدمير لدي». (Ecce Homo IV, §2) ورد في كتاب دولوز: نيتشه والفلسفة.

(3) Haar. Michel. Nietzsche et la métaphysique. P.48.Gallimard 1993..

أن يتماهى مع العدمية في شكلها السالب. ولكن لإرادة القوة صفة أخرى أساسية هي الإثبات. وهذا الإثبات في حد ذاته ليس فقط مجرد إرادة قوة بل هو، أكثر من ذلك، سبب أصلي لكل إرادة قوة ومن حيث هو كذلك فهو يسعى إلى استبعاد كل ما ينفي هذه الإرادة.[1]

إن إرادة القوة بالنسبة إلى نيتشه هي أساس كل تقويم في مجال الحقيقة والخطأ، والشك واليقين. وغاية هذه الإرادة هي الرقي بالحياة وتقدمها، بمعنى إثباتها في شكلها الصاعد. ولكن من الضروري أن ننتبه إلى أن ما يهمنا من الحقيقة والخطأ ليس الحقيقة في حد ذاتها أو الخطأ نفسه، بل الذي يهمنا هو مدى نفعهما للحياة من حيث تزايد القوة فيها.[2]

إن مقولة إرادة القوة تعني لدى نيتشه فعل تجاوز الذات لذاتها، بحيث يحاول فيلسوفنا أن يفكر في الكائن بربطه بمفاهيم الحياة الأساسية على غرار الإرادة والفعل والصيرورة. ولعل من نتائج تجاوز الذات لذاتها هو ظهور «الإنسان الأرقى» الذي بواسطته تتمكن إرادة القوة الإنسانية من أن تحدد مصيرها.

وإذا كان الإنسان مقولة يجب تجاوزها، فهذا يعني أنه يسعى إلى

---

(1) جيل دولوز : نيتشه والفلسفة، ص 222، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع- بيروت 1993-

(2) يوحنا قمير : نيتشه نبي المتفوق، ص 27، منشورات دار المشرق – بيروت 1986

أن يوضّح لنا هدفه الأساسي المتمثّل في التحوّل من الإنسان إلى «الإنسان الأرقى» الذي يجدر بنا أن نطلق عليه بطل الإثبات بإطلاق، لأنه يسعى باستمرار إلى إثبات الحياة الصاعدة بواسطة خلقه للقيم البديلة.

وبهذا المعنى، فإن ديونزيوس يرمز به إلى الكائن الذي يمتلك الطاقة الجبارة القادرة على تحويل كل الأشياء إلى إثبات[1]. وإن الشخصية الإنسانية تتكون هي نفسها على الشاكلة التي يريدها ديونيزيوس للإنسان بأن يكون قويا شريرا وعميقا[2]. وهكذا فإن «الإنسان الأرقى» هو مصدر التقويم ولكنه فوق كل تقويم، ومهمته الأساسية تتمثل في أن يكون خالقا للقيم ولا يهمه أبدا حكم الناس عليه (خيرا أو شرا) لأن كلّ القيم من صنعه هو، وهو لا يتلقاها من أحد. ذلك هو حال الفيلسوف الذي يريده نيتشه، أن تكون مهمته الأصلية مشرعا للقيم حتّى يحرّر «القطيع» من سجن الأفكار التقليدية التي تعلي من قيم الضعف والانحطاط.

وإذا كان الإنسان قد انحط إلى أسفل الدرجات فإن الفلاسفة هم الذين يأخذون على عاتقهم إرجاعه إلى مرتبته الإنسانية.[3]

---

(1) Granier. Jean. Que sait- je ? Nietzsche. P.118.P.U.F. 1985.

(2) «le rendre plus fort, plus méchant, plus profond ». Nietzsche.F. Par-delà Bien et mal, § 407. Trad. Cornélius Heim. Gallimard 1971.

(3) Gauvin. François. Le point Hors- série n°15 septembre – octobre 2007.

ولكن نيتشه، من جهة أخرى، يعتبر أن «الإنسان الأرقى» من حيث هو غاية منشودة، لا نجد له شبيها مع أي نموذج إنساني موجود في الواقع. وفي هذا الإطار ستكون فلسفة «الإنسان الأرقى» وأفكاره بمثابة تصورات للمستقبل .

وبما انه في هذا العصر العدمي قد انقرض النموذج القوي حيث لا وجود لأسياد حقيقيين، فإن هذا «الإنسان الأرقى» يمثل أنموذج الإنسان القوي في المستقبل، إنه الإنسان الذي سينتصر على العدمية ويعلي من قيمة الحياة ويثبتها[1].

إن إنسان المستقبل هذا، هو الذي سيفك أسرار حياتنا ويكشف لنا حقيقتنا، إنّه النموذج الذي يخرج من ركام الانحطاط وإرادة العدم ومن العدمية نفسها، إنه يظهر لنا لكي يحرر الإرادة ويحقق هدفه في الأرض لا في السماء ليعيد الأمل للإنسان، إنه عدو المسيح وكل العدميين.

إن هذا النموذج الفذّ الذي ينتصر على الإله ويفتك بالعدم هو آتٍ لا ريب[2].

إن مهمة هذا «الإنسان الأرقى» تتمثل أساسا في خلق قيم جديدة

---

(1) Haar. Michel. Nietzsche et la métaphysique. P. 47-48. Gallimard 1993.

(2) Nietzsche. F. La généalogie de la morale. §24.P.286-287. 2ème dissertation. Trad. Hildenbrand et Gratien. Gallimard 1971.

تحرّرنا من الأخلاق السائدة، فهو ليس عبقريا، لأن نيتشه يعلن بنفسه أنه قد استبدل فكرة الإنسان العبقري بفكرة الإنسان الذي يخلق نموذجا إنسانيا يتجاوز به ذاته، تماما مثلما يستبدل فكرة «الفيلسوف» بصاحب الفكر الحر الذي يكون أرقى من العالم والباحث والناقد، ويوجه كل قواه من أجل القضاء على أخلاق الضعف التي تحتقر الحياة[1] .

وإن هذه الأخلاق تمثل في الأصل، خلاصة الفكر البائس الذي يقف ضد كل ما هو طبيعي ويسعى إلى تدنيسه، إنه من الواجب علينا أن نقف ضد هذا الفكر متحدين من أجل طمس مقولاته الضبابية والعبثية على غرار مقولة » العالم الآخر» « L'au –delà»، وأفكاره المعادية للحياة ولقيمها الإثباتية، ولعلّ «الإنسان الأرقى» هو وحده القادر على إعانتنا على إنجاز هذا المشروع، لأنه هو بالذات نموذج الكمال المطلق في مواجهة إنسان العصر الحديث، ذلك «الطيب» الذي يتغنى به العدميون والمسيحيون.

ولكن زرادشت يعلن عن انتصار النموذج الأرقى الذي يحطم الأخلاق السائدة ويخلق قيم الحياة الجديدة.[2]

إن هذه القيم الجديدة التي يخلقها «الإنسان الأرقى» مختلفة

(1) Nietzsche. F. La volonté de puissance. Chap III ; § 370. P. 155. Trad. Bianquis. Gallimard 1937

(2) Nietzsche.F. Ecce Homo. P. 70. Trad. Henri Albert . Paris 1971.

جذريا عن قيم الأخلاق السائدة التي تتخفى وراء مقولة الحقيقة، في حين أن هذه المقولة تنطوي على أكاذيب خطيرة، ولذلك يسمي زاردشت «الإنسان الطيب» تارة «الإنسان الأخير» وطورا «بداية النهاية» ولكنه يعتبره، قبل كل شيء، الإنسان الأكثر خطورة على الحياة بسبب كونه يفرض وجوده باسم الحقيقة لا باسم المستقبل.[1]

وهكذا فإن إثبات قيم الحياة يقتضي الانخراط في عملية نقدية جذرية للأخلاق السائدة، هذه الأخلاق التقليدية التي تتأسس على نظام الغايات والتي هي في الأصل لا تزيد عن كونها مجرد أحكام مسبقة، وبهذا المعنى فهي أخلاق مؤقتة وغير دائمة، ومن ثمة فإن نيتشه يدعو إلى تجاوزها.

وهذا التجاوز في الحقيقة لا يتم إلا حينما ننجح في توسيع الهوة بين الفئة الضعيفة الخاضعة لهذه الأخلاق وبين الفئة القوية التي تخلق القيم الإثباتية. لذلك فإن نيتشه يطمح إلى جعل النوع الراقي ينأى بنفسه عن «القطيع» نظرا إلى التضحيات التي قام بها من أجل تأكيد وجوده الخاص.[2]

إن نيتشه يعتبر أن مفهوم الحياة يقوم على فكرة الخلق، لذلك فهو ينقد فكرة «التكيف» (Adaptation) التي وردت عند سبنسر

---

(1) Ibid. P. 159.

(2) Nietzsche. F. La volonté de puissance. II. § 303 Trad. Bianquis. Gallimard 1937.

ويعتبرها بمثابة نشاط ثانوي للكائن الحي، أو قل مجرد رد فعل تجاه الحياة. وسبنسر يعرف الحياة انطلاقا من هذا النشاط العرضي، وكأن الحياة تكيف داخلي مع الظروف الخارجية.

ولكن نيتشه يعتبر أن هذا التصور يشوه طبيعة الحياة نفسها ويحقر من شأن إرادة القوة فيها، ويطمس بذلك مجموع القوى التلقائية والعنيفة التي بإمكانها هي ذاتها أن تنتج تأويلات وتوجهات جديدة، بل قد تذهب إلى حد خلق أشكال وصور مختلفة للحياة.

إن نظرية سبنسر هذه، تلغي الدور الرائد للوظائف العليا في الكائن الحي، حيث كان من المفروض أن تتجلى إرادة الحياة بوصفها قوة فاعلة وخلاقة، [1] لأن الحياة هي إرادة قوة هدفها السيطرة والتحكم، بل إننا لا نفوز بحياة عظيمة إلا بقدر ما نشرع في خوض غمار الحرب، الحرب على كل أشكال الأوثان على غرار الأخلاق السائدة التي تعرقل مسيرة الحياة نحو الصعود والارتقاء[2].

وبهذا المعنى يعتبر نيتشه أن «الإنسان الأرقى» فنان ماهر في تجسيد إرادة القوة بما هي قوة فاعلة وإثباتية، غايتها السيطرة والتملك

---

(1) Nietzsche. F. La généalogie de la morale. §12P.270-271. 2ème dissertation. Gallimard 1971.

(2) Nietzsche. F. Le crépuscule des idoles. § 3. P. 112 Tard. Henri Albert. Mercure de France. Paris 1899.

والاستيلاء وخلق أشكال جديدة للحياة[1] . وإن الحياة التي يتصورها فيلسوفنا هي تلك التي تنبجس من شعلة النقد، خاصة وأنه يعيب على المعرفة أنها تجعل من الفكر مجرد وسيلة في خدمة الحياة كما فعل سقراط، والحال أن نيتشه يجعل من النقد عنصرا فاعلا خاصة عندما يكون نقدا للمعرفة في حد ذاتها.

وهذا النقد من شأنه أن يعبر عن قوى جديدة تكون قادرة على إعطاء معاني أخرى للفكر بما هو فكر يثبت الحياة ويحولها هي نفسها إلى قوة إثبات. وهكذا قد يصبح التفكير عبارة عن اكتشاف لإمكانات جديدة للحياة واختراعها[2] .

ويمكن القول بهذا المعنى، إن الحياة هي تجسيد للإرادة بمعناها الإثباتي، حيث تنزع هذه الإرادة لمزيد من القوة، خاصة وأن كل إرادة تهدف بطبعها، من منظور نيتشوي، لأن تكون الأقوى على الإطلاق. وإذا كانت كل قوة تطمح كذلك إلى أن تكون قوة أعلى، فإن الإرادة في هذه الحالة، لا يمكنها أن تخضع إلا لذاتها، أي إلى مطلبها في النمو والازدياد. وبهذا المعنى، تكون الإرادة شرط وجود الكائن بما هو ينزع إلى إثبات قيم القوة وتجاوز الضعف.[3]

---

(1) جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، ص 57، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت 1993.

(2) نفس المرجع، ص 128- 129

(3) «Cesser de vouloir est impossible : Ce serait cesser d'être ». Haar. Michel. Nietzsche et la métaphysique. P.27-28-Gallimard 1937.

ولكن ما عسى أن تكون إرادة القوة الإثباتية إن لم تكن قوة الغريزة وثرائها، لأنه من دون الغريزة تنتفي الحضارة الإنسانية برمتها؟ لذلك يعلن نيتشه بوضوح أن العلم والفن والتاريخ والثقافة عموما، ناتجة كلها عن لعبة القوى الغريزية، أي ناتجة عن الطبيعة نفسها.

وتبعا لذلك، يمكن القول بأن الغريزة هي مصدر أساسي للقيم، وأن الإرادة هي تعبير عن القوى الحيوية في الكائن.[1]

وإذا كانت للغريزة أهمية قصوى في إثبات قيم الحياة الصاعدة ومقاومة الحياة المنحطة، فإن ذلك يفترض بالضرورة أن «الإنسان الأرقى» الذي سيضطلع بمهمة خلق هذه القيم الجديدة سيرث، كما يقول نيتشه، عن الهمجي ثراء الغرائز وتوهجها، ولكنه سيسعى، مع ذلك إلى دمج هذه الغرائز ضمن نظام أرقى لتتحول إلى شرط أساسي للحرية الخلاقة.[2]

ولذلك تعلن الفلسفة النيتشوية أن مقاومة الغرائز أمر يتجاوز قدرة الإنسان[3]، فلا بد إذن أن نكف عن إعطاء كل الأهمية للوعي في عملية خلق القيم، وتحويل مركز اهتمامنا إلى الجسد بما هو المقياس الوحيد الذي يوفر لنا معرفة حقيقية بعمق شخصيتنا. إننا بوسعنا أن نفك رموز العالم بواسطة الجسد ولعلها تلك هي «الثورة

(1) Nietzsche. F. La volonté de puissance. § 3481. Gallimard 1970.

(2) Granier. Jean . Que sais-je ? Nietzsche. P.119.P.U.F.1985

(3) Nietzsche. F. Aurore. § 109. P.88. Livre II. Gallimard 1937.

الكوبرنيكية» التي يقترحها نيتشه بديلا للثورة الكانطية الشهيرة، فهو يقترح فهما حيويا جديدا للذات بما هي جسد فاعل ومثبت للحياة عوضا عن الأنا المتعالية للفلسفة الميتافيزيقية.[1]

إن الجسد، بهذا المعنى، يكون إرادة قوة متجسدة بواسطة أفعاله الإثباتية وحركته المتواصلة التي لا تنقطع عن النمو والامتداد والسيطرة.

---

(1) Granier. Jean . Que sais-je ? Nietzsche. Chap.IV P.90.P.U.F.1985.

التقويم فعل أخلاقي

أ- خلق القيم: الفعل الأخلاقي الأوّل:

إنّ الفعل الأخلاقي هو بمثابة خلق للقيم وتشريعها، أي التقويم بما هو قياس وتثمين للأشياء والمفاضلة بينها بحسب سلّم للقيم يستمدّ مشروعيته من موقع الذات ومنفعتها الخاصة في الحياة.

ولكن نيتشه يعتبر أنّ تلك الأحكام السّائدة التي نسميّها «أحكاما أخلاقية» هي في الحقيقة ليست موجّهة لمصلحة الأفراد أو ضامنة لسعادتهم الخاصة، بل إنّها جعلت لإيذائهم وتنغيص عيشهم.

وهكذا يبدو الحكم المسبق الشهير الذي يدّعي بأنّ للأخلاق قيمة كبرى وتأثيرا شديدا في نماء العقل الإنساني هو قول خال من الصحّة[1]. ومع ذلك يمكن تعريف الأخلاق انطلاقا من أبعادها الإنسانية بالذّات، بحيث لا وجود لها خارج ما هو إنساني.

---

(1) Nietzsche. F. Aurore. Œuvres philosophiques complètes. Trad. Julien Hervier. Livre II . § 108. P 86. Gallimard. Paris 1970.

وهكذا تبدو لنا بمثابة نظرية للمفاضلة بين البشر تحدد قيمة أفعالهم، او بمعنى آخر هي نظرية في أحكام القيمة الإنسانية والتي تتناسب مع كلّ ما هو إنساني. وحتّى عنوان كتاب نيتشه «إنساني، مفرط في الإنسانية» أراد من خلاله أن يبيّن الطّابع الإنساني لكلّ شيء، فالإنسان هو صانع القيم التي يحكم من خلالها على تلك الأشياء من زاوية نظره[1].

إنّ مشروع نيتشه يتمثّل في تهيئة الإنسانية لمعايشة اللحظة الذّهبية التي تعود فيها إلى ذاتها، بحيث تستطيع النّظر إلى الماضي والمستقبل البعيد دون أن تخضع إلى سيطرة الصدفة أو إلى توجيه رجال الدّين، إنّها اللّحظة التي تطرح فيها الإنسانية لأوّل مرّة سؤال: لماذا؟ وكيف؟ وإنّ هذا المشروع يبدأ في التحقّق فعليا متى كفّ البشر عن إتّباع ذلك «الطريق السّوي» الذي رسمته لهم القوى الإلهية، فوراء القيم الأكثر قداسة تختفي غريزة النّفي والانحطاط.

لقد أراد نيتشه أن يجعل من الذّات مصدرا للتّشريع الأخلاقي بما هي تسعى إلى خلق قيم الارتقاء إلى الأعلى، ونراه كيف يتحدّث عن نفسه بما يشبه الثقة المطلقة أو الغرور الذي يتحوّل إلى أنانية، ولكنّها أنانية خلاّقة دونها لا يكون الإنسان مبدعا لقيمه، تلك القيم

---

(1) " Le titre de mon livre (Humain, trop Humain) veut dire ceci : Là ou vous voyez des choses idéales, moi je vois...des choses humaines, hélas ! top humaines !" Ecce Homo, P 98, Trad Albert, Paris 1971

الجديدة التي ترسم الطريق للحياة الصاعدة، وتجعل من الفيلسوف مشرّعا حقيقيا ومبشّرا بنوعية حياة أرقى[1].

إنّ الوصول إلى فكرة الإنسان المشرّع للقيم مهّدت لها تحوّلات تاريخية عميقة، إذ برجوعنا إلى عصور ما قبل التاريخ نلاحظ أنّ وجود القيمة أو غيابها في فعل ما يقاس انطلاقا من النتائج التي تترتب عن ذلك الفعل .

وفي فترة موالية من التاريخ الإنساني أصبحت الإنسانية شيئا فشيئا تقيس القيمة انطلاقا من السبب لا من النتيجة، ولكن في مرحلة أخرى تحوّل مصدر قيمة فعل ما من السبب إلى المقصد من وراء القيام به. وأمّا اليوم فقد صار الإنسان مصدر القيم وواضعها، وانقلب التفكير من الاهتمام بالعناصر الخارجية (السبب – النتيجة – القصد) إلى الاهتمام بالإنسان بما هو كائن مشرّع للقيمة[2].

وفي هذه المرحلة بالذّات تصبح قيمة الأشياء غير كامنة في الأشياء نفسها، بل إنّ الإنسان هو الذي يودع فيها هذه القيمة. إنّ الأشياء محايدة والإنسان هو خالق القيم، هذه القيم التي تنبع من

(1) «Personne ne connaissait avant moi le bon chemin, le chemin qui mène en haut. Ce n'est qu'à dater de moi qu'il existe de nouveau des espoirs, des taches, des voies vers la culture dont le tracé est indiqué ». Ibid. P 139

(2) Nietzsche. F. Par-delà bien et mal. § 32 P 51 . Œuvres philosophiques complètes. Trad Heim. Gallimard 1971

موقف الفرد أو مجموعة من النّاس التي تتّفق على قيم معيّنة تعطيها للأشياء[1]. أن نقوّم هو أن نخلق قيما عبر القوّة التي تجعلنا نطلق أحكاما ومواقف، وأنّ أيّ حكم قيمة هو دائما حكم يكون في مصلحة من يطلقه لأنّه ينمّي من درجة قوّته.

وهكذا، فإنّ القيمة التي نعطيها للشيء عن طريق حكم ما ليست في الحقيقة سوى انعكاس لطابعنا الشخصي الذي نودعه في ذلك الشيء، وحكم القيمة هو بمثابة العنف الذي نسلّطه على الأشياء قصد السيطرة عليها.

إنّ الحياة بهذا المعنى لا تنفصل عن العنف والاستغلال والقوّة، ومن ثمّة لا يمكنها، بأيّة حال من الأحوال، أن لا تكون تقويما متواصلا.

والتقويم حسب نيتشه هو تأويل، لأنّنا عندما نقوّم نحن في الحقيقة نرى الأشياء من وجهة نظرنا الخاصة[2].

وهكذا يمكن اعتبار الأخلاق نمط تقويم، لأنّها تحدّد كلّ مواقفنا تجاه الأشياء، وهي سند لكلّ تأويلاتنا، وبهذا المعنى فهي كذلك عرض من أعراض الحياة، حيث يدلّ وجودها على وجود

---

(1) عبد الرحمن بدوي: نيتشه، ص 167، وكالة المطبوعات – الكويت 1975

(2) «Les valeurs sont des interpretations» Nietzsche, F. La volonté de puissance, II, § 134, Trad Bianquis, Gallimard Paris 1937

درجة معيّنة من الحياة[1].

ويمكننا القول إذن بأنّ كلّ تقويم هو من طبيعة أخلاقية، وأنّ كلّ تفكير مهما نزع لأن يكون مجرّدا، فإنّه في الحقيقة يتأسّس على عملية تقويم أخلاقية. ويذهب نيتشه إلى أبعد من ذلك، معتبرا أنّ الأخلاق حاضرة حتّى في عمق مدركاتنا الحسية وأنّ الإدراك نفسه هو حكم قيمة وعملية مفاضلة بين الأشياء.

إنّ الأخلاق تحدّدنا حتّى في حواسنا وإدراكنا لأنّها تعبّر مباشرة عن درجة الحياة لدينا، وإنّنا نحكم دائما انطلاقا من الحالة التي نحن عليها. لذلك فإنّ نيتشه عندما يتحدّث عن تجاوز الأخلاق، هو في الحقيقة يحثّنا على تغيير طريقتنا في الشعور والإحساس[2].

يجب التأكيد على أنّ مهمّة فيلسوفنا لا تتمثّل في تأسيس الأخلاق، بل إنّه يسعى إلى وصف الظاهرة الأخلاقية وتحليلها، فعمله هو عمل وصفي بالأساس، ولكنّه مع ذلك عمل أساسي لأنّه وحده القادر على تحرير الفيلسوف من الأخلاق السائدة ومن الأحكام المسبّقة لعصره.

وهذا العمل نفسه هو الذي يقود الفلاسفة إلى الماهية الحقيقية

(1) «J'appelle morale un système de jugements de valeur qui est en relation avec les conditions d'existence d'un être » Ibid. § 136

(2) Nietzsche. F. Aurore. § 103. Trad Julien Hervier. Gallimard Paris 1970

للأخلاق بما هي نمذجة لإرادة القوّة[1].

إنّ الأخلاق هي تقويم وتأويل، بمعنى أنها مؤسسة للمفاضلة والقياس والأحكام والخلق. ولكن المشكل الأخلاقي الكبير لدى نيتشه يتمثّل في السؤال: من يقوّم؟ ولمصلحة من يكون التقويم؟ وفي هذا المجال بالذّات نجد نوعا من التقويم يرتبط بما هو أدنى ويكون بمثابة ردّ فعل لا بمثابة خلق وإبداع.

كما نجد في المقابل معنى آخر للتقويم مخالفا للأوّل حيث يتحدّث نيتشه عن «أخلاق السّادة» التي هي في الأصل ليست أخلاقا بقدر ما هي عملية خلق متواصل للقيم وطريقة للتحكّم والسيطرة على الآخر.

إنّنا إزاء أخلاق أرستقراطية خاصيتها التميّز والاختلاف، فالسيّد الأرستقراطي هو الإنسان الذي يضع مسافة تجعله يبتعد عمّن حوله ويختلف عنهم، إنّه يثبت تميّزه وتفوّقه، وما التميّز والتفوّق إلاّ طريقة خاصة للسيطرة والتحكّم في الآخرين.

وإنّ إثبات الاختلاف هو في حدّ ذاته فعل إيجابي يتمكّن من خلاله السيّد من تأكيد مواهبه الخاصة[1]. وهذا يعني أنّ الأسياد يثبتون

(1) Nietzsche. F. Par-délà bien et mal. § 86 Trad. Heim. Hildenbrand et Gratien. Gallimard Paris 1971.

(1) Nietzsche. F. La volonté de puissance. II. § 224. Trad. Bianquis Mercure de France. Paris 1899

أنفسهم بأنفسهم، وهم ليسوا في حاجة إلى أيّ شخص آخر أو أيّ طرف خارجي لكي يكون موضوعا من خلاله يثبتون ذواتهم. وإنّ أخلاق هؤلاء السادة هي أخلاق مشرّعة تستقي قيمها من ذاتها ومن الحياة نفسها، إنّها أخلاق أنانية.

ولمّا كانت كذلك فهي تسعى باستمرار إلى تثمين كلّ ما من شأنه أن يزيد من قوّة الكائن الحيّ. ويجب الانتباه هنا إلى أنّ أخلاق السادة على وعي تام بأنّها تمارس الزيف والكذب والعنف، ولكنّها رغم ذلك تجهل القيمة المعرفية لأحكامها الأخلاقية لأنّها لا تطرح أصلا سؤال الحقيقة والموضوعية والعدالة، لأنّ هذه الأسئلة تلهي الذات عن واقع الحياة.

وهكذا فإنّ أخلاق السّادة تتموقع في الحياة نفسها وتسكن إليها في ما وراء الخير والشرّ، بما أنّ السيّد يجهل الخير والشرّ، ولا يعرف إلاّ ما هو «خير» بالنّسبة إلى حياته الخاصة، وأمّا ما يهدّد تلك الحياة فهو «شرّ» من وجهة نظره[1].

إنّ التقويم يقوم على نوع من الفردانية والاختلاف، بمعنى أن تكون هناك رغبة من الذات في تأسيس أبعاد ومسافات داخل الذّات نفسها حتّى تتمكّن من إنتاج وضعيات أرقى وأعمق وأكثر تميّزا فيكون تشريعها للقيم نابعا من درجة اختلافها عن السائد. ويحيل الاختلاف

(1) Nietzsche. F. Par-délà bien et mal. § 260 Trad Heim. Hildenbrand et Gratien. Gallimard Paris 1971

لدى نيتشه إلى معنى الحياة المزدوجة: الحياة الصّاعدة والحياة المنحطّة.

وهذا المعنى نفسه هو الذي يكوّن المبدأ الجيانولوجي لإرادة القوّة ذاتها. وإنّ الذّات بما هي مشرّعة للقيم الأخلاقية، تصنع الأحكام في الاتجاهين الصاعد والمنحطّ، بحسب موقعها في الحياة[1].

ولكن، ومهما يكن من أمر، فإنّ القيم ناتجة عن تأويلات تنبع من الذّات، ويؤكّد نيتشه في هذا المجال، أنّ ما يهمّ الإنسان في الحياة ليس الحقيقة في حدّ ذاتها بل القيمة التي من خلالها نقيس تلك الحقيقة.

إنّ الفلسفة تنقلب الآن إلى أصلها السّقراطي القائم على التزييف، حيث تصير الحياة خادمة للمعرفة وتصبح إرادة الحقيقة في خدمة الحياة، في حين أنّ الإرادة هي الأصل الحقيقيّ لكلّ شيء، لأنّ قيمة تقويماتنا نفسها لا تستمدّ من حقيقة الكائن أو ماهيته، بل من التأويلات الذاتية والخاصة التي ينتجها[2].

لذلك ستتمثّل مهمّة نيتشه الأساسية في الإعداد لظهور ما يسمّيه «الإنسان الأرقى» الذي ينخرط في عملية تقويم جديدة ومختلفة عن السّائد.

---

(1) Granier. Jean . Que sais-je ? Nietzsche. P.121. P.U.F. 1985

(2) Deschamps. Jacques. Introduction à «la généalogie de la morale ». in : La généalogie de la morale. Nietzsche. F.P.60. Nathan. 1984.

هذا التّقويم الذي يسعى إلى تجاوز الإنسان من خلال معارضة القيم الرّائجة.

وهكذا فإنّ «الإنسان الأرقى» يختلف كليّا عن الإنسان النوعي الموجود. إنّ «الإنسان الأرقى» بما هو خالق لقيم جديدة يعدّ ذاتا مختلفة وطريقة جديدة في التفكير والتقويم[1].

ولكن يجب التأكيد هنا، على أنّ خلق قيم جديدة من قبل «الإنسان الأرقى» يقتضي اعتبار الفلسفات الأخلاقية السّائدة أوهاما لا توفّر أيّة حقيقة، لأنّ الحقيقة الفعلية الوحيدة هي الحياة الواقعية.

أمّا المثل العليا للأخلاق السائدة فهي تعمل على إفقار الحياة والانحطاط بها إلى أدنى درجة ممكنة من الحيوية، وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ الأخلاق تسعى إلى معارضة قوانين الطبيعة حين تدعو إلى الشفقة على الضعفاء والمنحطّين وحمايتهم، والحال أنّ قوانين الطبيعة مثل قانون الانتخاب تعمل على زوال هؤلاء وتنفي إمكانية المساواة بين النّاس.

ولأجل ذلك يدعو نيتشه إلى خلق قيم بديلة تسمو بالحياة وتجعلها خصبة وثرية وحيّة، ولن يتمّ ذلك إلاّ عن طريق القضاء على الأخلاق وتحطيم قيمها المتداولة، وهذا ما يسميّه البعض بـ «النّزعة

---

(1) جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، ص 237، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدّراسات والتوزيع والنشر، بيروت 1993.

اللاّأخلاقية» عند نيتشه[1] .

إنّ الفلسفة النيتشوية بهذا المعنى، تعطي مكانة عليا للأرستقراطية بما هي خالقة للقيم التي تساهم في إثبات الحياة الصّاعدة، ولكن الأرستقراطي يعتنق الفردية نزعة أساسية في حياته الخاصّة، وانطلاقا منها يحدّد مرتبته في الوجود .

وعلى هذا الأساس كان «الإنسان الأرقى» لا يحفل بالجماعة ما دام ذلك يتعارض مع سموّ ذاته وتحقيق امتيازه.

ولقد تأكّد لدينا أنّ نيتشه يرفض المساواة، مساواة الضعيف مع القويّ والأسفل مع الأعلى، ويعتبرها ظلما للنّخبة الممتازة وطريقا إلى الانحطاط. وإنّ إنكار فيلسوفنا للمساواة بين البشر يعدّ رفضا للنظام السياسي الديمقراطي وللنظام الاجتماعي الاشتراكي ولكلّ ما ينتج عن هذين النظامين من حكم منحطّ ومن حقد الوضيع على الرّفيع، والفقير على الغنيّ.

إنّ النظام الدّيمقراطي لا يعتبر فقط بمثابة الإعلان عن بدء فترة انحطاط جديدة في التاريخ السياسي، ولكنّه يعتبر كذلك إعلانا عن انحطاط الإنسان نفسه وفقدانه لقيمته الإنسانية[1].

---

(1) عبد الرحمن بدوي: نيتشه، ص 194، وكالة المطبوعات، الكويت 1975 .

(1) «Nous qui appartenons à une autre foi, nous qui tenons le mouvement démocratique non seulement pour un stade décadent de =

وإنّ الأمل في التحرّر من هذا الانحطاط يتمثّل في ظهور طينة جديدة من المفكّرين يأخذون على عاتقهم إعادة تقويم ما كان يمثّل «قيما أبدية ومطلقة»، أو يمكن أن يكون هدفهم متمثلا أساسا في قلب هذه القيم.

وإنّ هذه الطينة الجديدة من النوع الإنساني يطلق عليها نيتشه «إنسان المستقبل» « L'homme de l'avenir»، هذا الإنسان الذي يرسم للبشرية ملامح مستقبلها حيث يتشكّل هذا المستقبل انطلاقا من إرادة الإنسان، وبهذا المعنى فقط تتمكّن الإنسانية من تحقيق مشروعها العظيم المتمثّل في تربية الأذواق على النخبوية والانتقاء، ومن ثمّة وضع حدّ لسيطرة اللاّمعنى الذي ما فتئت الأغلبية تكرّسه.

وهكذا تشعر الأرستقراطية أنّها هي وحدها التي تحدّد القيم وهي التي تعطي للأشياء أهميّتها التي تستحقّ، وبهذا المعنى فهي مبدعة للقيمة وخالقة لها، إنّها تشعر بفيض القوّة لديها، ممّا يمكّنها من الشعور بالسعادة القصوى حين تمارس شتّى أشكال القوّة[1].

إنّ الإنسان الأرقى هو الذي يشرّع القيم انطلاقا من إرادة قوّة

=

l'organisation politique, mais pour un stade décadent où l'homme s'amoindrit, tombe dans la médiocrité et se déprécie ». Nietzsche, F. Par-délà bien et mal, § 203, P.116. Trad.Heim, Hildenbrand et Gratien, Gallimard, Paris 1971.

(1) Ibid, § 14, P.314.

خلاّقة، وهو بذلك يمثّل الفردانية في أبهى مظاهرها، حيث تكون الذات ذاتا كونية.

وبقدر ما نرى نيتشه معاديا وصارما تجاه النّزعة الأنانية التي تلتحف بأخلاق القطيع وتمتثل لها، نراه في المقابل يمجّد النّزعة الفردية معتبرا إيّاها من شروط اكتمال الحياة وتميّزها، لأنّ الإنسان الذي تضعف لديه الأنا تتلاشى لديه كذلك قوّة الحبّ بنفس المقدار[1].

إنّ الأحكام لا تكتسب مشروعية أخلاقية أو معرفية إلاّ إذا كانت نابعة من الذات لا من الآخر. فلماذا نتحدّث عن التّسامح والعدل والشفقة في حين أنّها من الأفكار التي أنتجها الآخر؟ فلا أحد تكون غايته أن يعيش بعمق وقوّة معتنقا لأفكاره الخاصة باستطاعته مع ذلك القبول بأفكار الآخرين، بل على العكس من ذلك، يحتقرها ويجعلها في مرتبة دنيا.

وهكذا فإنّ الاعتقاد في القيمة المطلقة لمعيارنا القيمي هو بالضبط الاعتقاد الصحيح الذي يحمل معنى ودلالة. وأمّا الاعتقاد في التسامح والمناداة به فيدلّ ببساطة على أنّنا نحتاط كثيرا من أفكارنا

---

(1) «Chez l'homme dont l'ego s'affaiblit et s'amenuise, la force du grand amour s'affaiblit aussi ». Nietzsche. F. La volonté de puissance. I. § 123. Trad. Bianquis. Mercure de France. Paris 1899.

الخاصة أو أننا لا نمتلكها أصلا.[1]

إن تشريع القيم يكمن – حسب نيتشه – في مجهود اختزالي تقوم به الذات لإعطاء معنى للعالم. إننا بقدر ما نلخّص الأشياء ونختزلها يبدو لنا العالم أكثر دقّة وجمالا ورمزية. وعلى العكس من ذلك، فبقدر ما نتعمّق في تفسير الأشياء تغيب أحكامنا الخاصة حول قيمتها ونعتقد شيئا فشيئا في خلوّها من القيمة.

إنّنا نحن من يخلق عالما بلا قيمة، ونحن كذلك من يخلق عالم القيمة. إنّ ما ينقصنا إذن هو الإرادة التي تسعى إلى اختزال كلّ شيء لتفسح المجال لبروز الجمال في أبهى صوره الإبداعية[2].

إنّ نيتشه يؤكّد على معنى الإبداع والخلق حيث تكون القيم إنشائية أساسا، وهي قيم جديدة نتجاوز بها الإنسان، ولكن هذا الإنسان الذي نتجاوزه لا يمثّل النّوع الإنساني بل يمثّل نموذج الإنسان الحديث، ذلك الإنسان «الطيّب» الذي يعدّ نتيجة طبيعية لسيطرة التعاليم المسيحية التي تعلّمنا كيفية السيطرة على الغرائز وإقصاء الجسد بحيث نندفع إلى احتقار الحياة ومعاداتها.

وما يريده نيتشه هو ظهور صنف جديد من البشر قادر على إعادة

---

(1) «La tolérance, c'est l'incapacité de dire ni oui ni non » Ibid. § 130. P.53

(2) Nietzsche. F. La volonté de puissance. § 108. P.45. Trad. Bianquis Mercure de France. Paris 1899.

المعنى والقيمة للحياة الأرضية، والعيش وفق الغرائز المثبتة للحياة. وإنّ هذا الحلم النيتشوي لا يتحقّق إلاّ عبر عملية قلب للقيم القديمة وخلق قيم أخرى جديدة[1].

ولكن هذا الحلم النيتشوي يستطيع كذلك أن يتهاوى ويكون من قبيل أضغاث الأحلام إذا لم نجد هذه الفئة الخاصة والمتميّزة من البشر التي ستسعى إلى تحويله إلى واقع ملموس.

ولذلك فإنّ الخطأ الجسيم الذي يرتكب في حقّ الحياة هو أن يبدأ الأقوياء والسعداء والنّاجحون في الحياة، في الشكّ شيئا فشيئا في حقّهم في تحصيل السعادة وتميّزهم عن الضعفاء والمنحطّين. وهكذا فإنّ الأرقى مطالب بأن لا يذعن لمشيئة الأدنى وأن لا يكون وسيلة لتحقيق أغراضه المنحطّة[2].

لقد أثبت التاريخ البشري أنّ الإنسان «كائن قيمة» لا يكاد ينقطع عن فعل التشريع والتقويم، ذلك أنّ الشعور بالخطأ أو الإحساس بالواجب لدى أيّ شخص يجد مرجعه الأوّلي في تلك العلاقات القديمة البدائية بين الأفراد، أي في العلاقة بين الشّاري والبائع، أو في

(1) Sophie-Jean Arrien. Le Point : Hors-Série. n° 15. sept-oct.2007

(2) «Le supérieur ne doit pas s'abaisser jusqu'à devenir l'instrument de l'inférieur ». Nietzsche. F. Par-delà bien et mal. § 14. P 314. Œuvres philosophiques complètes. Trad. Cornélius Heim. Gallimard. Paris 1971.

العلاقة بين الدّائن والمدين. ففي هذه الحالة بالذّات، ولأوّل مرّة، يقاس شخص بشخص آخر. وإنّ كلّ حضارة مهما كانت درجة ضعفها لا تخلو من هذه العلاقات، لأنّ وضع الثّمن وقياس القيمة وضبط المعادلات والتبادل هو الذي يختزل كلّ الفكر الإنساني ويجعل الكائن البشري يتميّز عن بقية الكائنات.

ولعلّ عمليات البيع والشراء وما يتبعها من تفاعلات نفسية هي أقدم من أيّ تنظيم إجماعي آخر، ومنها نتلقّى معاني التّبادل والعقد والحقوق والواجبات والتعويض... ولكنّنا نتعلّم منها، في نفس الوقت، عادة جديدة تتمثّل في مقارنة قوّة بقوّة أخرى، ومن ثمّة نشرع في الحساب والقياس[1]. وإنّ هذا ما يجعل نيتشه يقرّ في نفس السياق بأنّ المهمّة الأساسية للفيلسوف تتمثّل في حلّ مشكل القيمة وتحديد سلّم القيم وتراتبها.

ب - تشريع الضعفاء/ تشريع الأقوياء.

إن مسألة تشريع القيم مسألة مركزية في فلسفة نيتشه، لأنها هي التي تحدد نوعية الحياة التي يحياها كل إنسان. وإذا كانت الحياة قيمة في حد ذاتها فذلك لا يعني بتاتا أن تتحول إلى موضوع معرفة أو مشكل فلسفي يجعله الفيلسوف شغله الشاغل.

---

(1) Nietzsche. F. La généalogie de la morale. œuvres philosophiques complètes. 8 §. P.262. Trad. Hildenbrand et Gratien. Gallimard. Paris 1971.

ولكن ما يحصل في الواقع الحديث أن الإنسان بصدد فقدان الثقة في الحياة لأنه يحولها باستمرار إلى مشكل، ومع ذلك يعتقد نيتشه أن حب الحياة مازال ممكنا[1] .

إن الفيلسوف عندما يجعل من قيمة الحياة مشكلا، فهو بذلك يطعن في حكمته الخاصة وجدارته بالتفلسف الحقيقي، وذلك بالضبط ما يعيبه فيلسوفنا على دورينغ (Dûhring) صاحب مؤلف «قيمة الحياة»[2].

إن الحياة تتطلب فقط أن نحياها، ولكن ذلك في حد ذاته مشروط بفعل تشريع القيم وتثمين الأشياء من حولنا. وفي هذا الاتجاه يعتبر نيتشه أنّ هناك نوعين من التشريع الأخلاقي: تشريع يدفع بالحياة إلى الأعلى ويؤسسها، وتشريع ينفيها من جذورها، ونتحدث بهذا المعنى عن أخلاق السادة وأخلاق العبيد، أي أخلاق يكون منبعها صفوة ممتازة من الناس، وأخلاق منبعها الفئات الضعيفة والمنحطة.[3]

وإن أخلاق العبيد هي أخلاق الضعفاء التي يؤسسها كائن منحط بما هو شخص ضعيف الغريزة، ونتيجة لهذا الضعف التكويني

---

(1) Nietzsche. F. Le crépuscule des idoles : Le cas wagner. I. P.79. Trad.Henri Albert. Mercure de France . Paris 1899.

(2) Ibid § 2.P.96

(3) عبد الرحمن بدوي: نيتشه ص 172، وكالة المطبوعات – الكويت 1975

والفيزيولوجي الفادح، يلجأ باستمرار إلى تعويض هذا النقص وذلك بتعظيم جانب المنطق والوعي والواجب، وانطلاقا من هذه الخصائص يشرع كل قيمه التي يحتاج إليها.[1]

إن نيتشه يعتبر أن الأخلاق السائدة هي أخلاق الضعف التي تتأسس على قاعدة أساسية هي «حب الغير»، وهذه القاعدة هي- في نظره- وصفة ملائمة للذين فقدوا المواهب الحقيقية للحياة إلى درجة كرههم لأنفسهم.

لأجل ذلك علينا أن ندق ناقوس الخطر، لأن«الطيبين» يتّحدون الآن ضد النموذج الأرقى، وذلك يمثل منعرجا خطيرا نصبح في نهايته أعداء للمتميزين والمتفوقين.[2]

إن الضعفاء خلقوا نموذجا جديدا لـ » الإنسان الأعلى» ولكننا نرى الفلسفة النيتشوية تقف معارضة لكل قول بهذا النموذج المزيف. وهكذا فإن ما نطلق عليه «الإنسان الطيب» أي هذا النموذج السائد لدى العامة، يمثل الركن الأساسي في أخلاق الانحطاط التي اكتسبت في الواقع قدرا من القوة ولكنها في الحقيقة ليست إلا زيفا وأكاذيب.

وبهذا المعنى فإن اعتبار «الطيبة» من الخصائص الراقية للحياة يعتبر من قبيل الانحطاط وعلامة من علامات الضعف التي تتعارض

(1) Granier. Jean. Que sais-je ? Nietzsche. P.93.P.U.F.1985

(2) Nietzsche. F. La volonté de puissance. § 234.P 82.Trad.Bianquis. Gallimard. Paris 1937

مع كل نزعة إثباتية للحياة. وإننا نرى أن التعاليم الأخلاقية السائدة لا تذكرنا إلا بالفناء وبأن الإنسان والحياة عموما لا يساويان شيئا لأن مصيرهما الفناء.

إن هذه الأخلاق تمجد قيم الانسحاب من الحياة ومن ثمة فهي تنفي الحياة نفسها.[1]

يعتبر نيتشه أن سيطرة العبيد- من خلال الأخلاق- تبدأ حين يتحول الضعف نفسه إلى عملية خلق للقيم، بما لا يمجد الفعل الحقيقي بقدر ما يمجد صنع العوالم الخيالية. في حين أن الأخلاق الأرستقراطية تنشأ انطلاقا من قول «نعم» الموجه إلى الذات نفسها، فهي بهذا المعنى إثبات للذات . أما أخلاق العبيد فهي تقول«لا» لشيء خارج ذاتها، أي للآخر المختلف عنها. وإن هذا النفي هو طريقتها الخاصة في الخلق.

إن هذا الانقلاب في النظرة تجاه القيم والذي يتوجه إلى الخارج عوضا عن الذات نفسها، يرجع في الحقيقة إلى الضعف الكامن في أخلاق العبيد، لأن هذه الأخلاق تحتاج دائما، لكي توجد، إلى عالم خارجي، وبمعنى آخر هي تحتاج فيزيولوجيا إلى الإثارة والتحفيز الخارجي لكي ترد الفعل.

وهكذا فإن أخلاق العبيد ليست أخلاق فعل بقدر ماهي أخلاق

---

(1) Nietzsche. F. Ecce Homo. P.146.Trad. Henri Albert. Gonthier. Paris 1971.

رد الفعل.[1]

و إن من أوكد الأسباب لضعف أخلاق العبيد هو أن هذه الأخلاق، من وجهة نظر نيتشه، قائمة على قاعدة العقاب، ولكن العقاب من شأنه أن يجعل إرادة الفعل تعمل بحذر شديد، وتشعر بنفسها مكبلة، بل إنها قد تبحث عن النشاط في كنف التخفي والسرية. وهكذا يشعرنا سلوك العقاب بأننا أكثر ضعفا مما كنا نتصور ويحملنا مسؤولية في إصلاح ذواتنا، وهو بذلك يزيد من درجة الخوف في الإنسان ويضاعف من رغبته في السيطرة على رغباته. وإن النتيجة الحتمية لهذا السلوك هي القضاء على الذكاء الإنساني وطمس معالم الذاتية لدى الإنسان.

إن العقاب لا يصنع الإنسان «الأفضل» بل على العكس من ذلك، يصنع النموذج الأسوأ الذي يختزل كل الحماقة البشرية[2].

إن أخلاق العبيد هي أساسا أخلاق منفعية، ومن هنا بالذات يمكننا البحث عن أصل التمييز الشهير بين «طيب» و«شرير» فبالنسبة إلى الإحساس العادي، يمكننا اعتبار الشرير شديد الارتباط بكل ما هو قوة وخطر ومجازفة، بالإضافة إلى انه يمثل هو نفسه تهديدا متواصلا

---

(1) Nietzsche.F. La généalogie de la morale. 1ére dissertation. § 10. P.234.Trad.Hildenbrand et Gratien. Gallimard. Paris .1970.

(2) Nietzsche. F. La généalogie de la morale. 2ème dissertation. § 15.P.274. Trad. Hildenbrand et Gratien Gallimard .

لكل ما يخالفه، وهو يعبر كذلك عن اندفاع قوي يجعله يستهزأ من كل سلوك احتقاري تجاهه.

وهكذا فإنّ أخلاق العبيد تعتبر «الشرير» موضوعا للخشية والحيطة، وأما أخلاق السادة، فعلى العكس من ذلك، تعتبر أن «الطيب» هو الذي يجدر بنا أن نخشاه ونحتقره. إن نيتشه يعتبر أنه حيثما سادت أخلاق العبيد نجد اللغة تنزع إلى تقريب الطيبة من الحماقة.

وإن الفارق الأساسي بين أخلاق العبيد وأخلاق السادة يتمثل في حاجة الأولى إلى الحرية وغريزة السعادة المتنامية لديها وفي ذلك الشعور بضرورة التحرر، وشعور الثانية بالتفوق والتميّز مما يجعلها تؤسس الفكر المدافع عن القيم الأرستقراطية، وتبني انطلاقا من هذا الفكر، تفاضلية القيم[1].

إن نيتشه يحاول في كل مرة أن يبين الواقع المأسوي المتمثل في انتصار تشريع الضعفاء على تشريع الأقوياء، ويعتبر في لغة استهزائية تهكمية واضحة أن السفلة هم وحدهم الذين يتوفر لهم الحظ في البقاء والدوام والتكاثر.

إن السافل، بهذا المعنى، هو «إنسان المستقبل»، وهكذا فإن أخلاق السفلة هي الأخلاق الوحيدة التي ستحافظ على معناها

---

(1) Nietzsche. F. Par –delà bien et mal. § . 260. P.185-186. Oeuvres philosophiques complètes. Trad Heim. Gallimard 1971.

وسيكون لها الصدى الواسع. ولكنها في المقابل ستسعى إلى التخفي وستحرص كل الحرص على عدم الإفصاح عن ماهيتها أو مقصدها، إنها أخلاق الغموض التي لا تنفك مع ذلك عن الحديث عن الكرامة والشفقة وحب الغير..."[1].

إن من صفات الضعفاء أنهم ينزعون بطبيعتهم إلى الاجتماع بقدر ما ينزع الأقوياء إلى الافتراق. وإن البحث عن الاجتماع يهدف في الأصل إلى تكريس سلوكات عدوانية مشتركة يرضي بها الناس إرادة القوة لديهم.

غير أن الضعفاء يجدون في هذا الاجتماع والاتحاد نفسه لذتهم الحقيقية التي تشبع غريزتهم في الوقت الذي تكون فيه غريزة السادة الأقوياء مغتربة ومهمشة بفعل هذه التنظيمات الاجتماعية الساعية إلى التوحيد.

ولعل ما يخيف السادة هنا هو أن الاجتماع يهدد الذات الخاصة للفرد في تميزها وعلوها على من دونها مرتبة باسم قيم يخلقها الضعفاء على غرار العدالة والمساواة والديمقراطية...

ولكن القيم التي يشرعها العبد بما هي قيم يتغلب عليها رد الفعل على الفعل، تتجه باستمرار نحو الانتقام والعدوانية، وأي انتقام غير مقاومة قيم السيد الساعية إلى التفوق والسيطرة والإخضاع ؟ وإذا كان هيجل يحلّ مشكلة علاقة السيد بالعبد بما هي علاقة يحكمها

Ibid. § 262. P.189 . (1)

سلوك الاعتراف، اعتراف طرف بتفوق طرف آخر، فإن نيتشه يقر بخطأ هذا التحليل الهيجلي الذي يقدّم فهما مغلوطا لإرادة القوّة، لأنّ العبد في هذه الحالة لا يتصوّر القدرة إلا من حيث هي موضوع للاعتراف ومادة للتمثّل، في حين أنّ المعنى الحقيقي للقدرة ينطوي على معاني السيطرة والتملّك والتحكّم[1].

إنّ العبيد من وجهة نظر نيتشه هم أولئك الضعفاء والفاشلون والمنحطّون الذين ضعفت لديهم إرادة القوّة المثبتة فراحت تسعى إلى الحطّ من قيمة الحياة والانتقام من الأقوياء، لذلك فعندما يعجزون عن مقاومة السّادة والأقوياء يلجؤون إلى خلق عالم آخر يكون خياليا ومختلفا عن عالمنا، ويودعون فيه كلّ قيم الضّعف مثل الشفقة والصّبر والتسامح...

وإنّ هذه القيم بالذّات هي التي جعلت العبيد أنفسهم يسودون على حساب السادة والمتفوّقين. وهكذا دفع الخوف بهؤلاء العبيد إلى اختراع فكرة الإله الذي يدافع عنهم، وبالمثل صنعوا مفاهيم من قبيل خلود النفس والثواب والعقاب، تعويضا لهم عن القهر والحرمان الذي لحقهم في الحياة نتيجة ضعفهم الطبيعي. ولكن نيتشه يعتبر أنّه بالنظر إلى الواقع، نجد أنّ إرادة القوّة في الضعفاء والعبيد انتصرت على إرادة القوّة في الأقوياء والسّادة.

---

(1) جيل دولوز : نيتشه والفلسفة، ص 57، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدّراسات والنّشر والتّوزيع - بيروت 1993

لذلك فإنّ مهمّة الإنسانية القادمة ستتمثّل في تحطيم القيم السّائدة للعبيد وبناء أخلاق جديدة تقوم على الثّقة في الحياة والإنسان والأرض، وتعيد الاعتبار للغرائز وتعلي من شأن الفرد المتفوّق السّاعي إلى السيطرة والتحكّم في الآخرين[1].

وإنّ الحكم على قيمتي الخير والشرّ هو مجرّد تأويل ذاتي سعى نيتشه إلى تتبّع صيرورته عبر البحث الجيانولوجي، وكلمة (généalogie) كلمة جديدة في الفلسفة، استعملها فيلسوفنا لكي يؤكّد من خلالها أنّ الخير والشرّ لا يمثّلان قيمتين في حدّ ذاتهما، ولكنّهما مجرّد خلاصة لتأويلات قديمة وسابقة ورثناها عن التّراث الرّوحي للإنسانية.

قد تتبع نيتشه كذلك لفظ «طيّب» في كثير من اللّغات المتداولة فوجده دالا على النّبل وسموّ الرّوح والأرستقراطية التي تسيطر على ما هو عامي ومشترك و«شرير» أي الشعب.

ولكن السؤال الذي يمكن طرحه هنا هو: كيف اكتسب الشعب صفة «الطيّب»؟

وفي هذا المستوى بالذّات نتحدّث عن «ثورة العبيد» التي بمقتضاها واجه هؤلاء العبيد قيم الأرستقراطية وسعوا إلى الانتقام منها

(1) يوحنّا قمير: نيتشه نبيّ المتفوّق، ص 31، منشورات دار المشرق، بيروت 1993.

بخلقهم لقيم الضّعف والانحطاط التي سادت في الأخير.[1]

وهكذا، إذا كانت أخلاق السادة تتحدّد بذلك التصوّر الإيجابي لتفوّق الأسياد وسموّهم وسعادتهم الخاصة التي تنتج عن هذا الشعور بالتميّز، فإنّ أخلاق العبيد ليست سوى ردّ فعل وحقد دفين على قيم الأسياد.

وبما أنّها تقوم على مجرّد ردّ فعل فإنّ هذه الأخلاق تحتاج دائما إلى الآخر لكي تتأسّس، وهذا الآخر يكون بالضرورة «العدوّ الشرير».

وبما أنّ العدوّ في هذه الحالة، هو السيّد المتمتّع بالحياة والذي يميّز جيّدا بين الخير الشرّ، فإنّ العبد سيلجأ إلى التّعويض بأن يخلق مفاهيم من قبيل «الشرّ في ذاته» و«الخير في ذاته»[2] .

وبهذه الطريقة فإنّ الأخلاق تنفصل شيئا فشيئا عن الحياة، بل إنّها تنتهي إلى الانقلاب ضدّها حيث يعتبر جمهور العبيد أنّ ما يبدو لنا طيّبا وما نحسّ بأنّه اللّذة هو بالضرورة شرّ، في حين أنّ السعادة لا تكون في هذا العالم ما دام هذا العالم تحت سيطرة الأسياد.

إنّ تشريع العبيد ينصبّ ضدّ الحياة بتمجيده لقيم الخضوع والتحمّل ومقاومته للغرائز الحيوية باسم قيم لا وجود لها في عالمنا[1] .

---

(1) François Gauvin. Le Point : Hors-Série n° 15. sept-oct 2007

(2) Ibid .

(1) François Gauvin. Le Point : Hors-Série n° 15. sept-oct 2007

إنّ البحث في الأحكام المتعلّقة «بالطيب» و«الشرير» يضعنا أمام مبحث أشمل يتعلّق بقيمة كلّ تقويم ينبع من الذّات، ومن ثمّة النظر في قيمة القيم نفسها.

ويلاحظ نيتشه بأنّ كلّ تشريع للقيم يذهب في اتّجاه مقاومة الكذب والخطأ هو تشريع الفئة الضعيفة التي آلت على نفسها مقاومة الحياة، لأنّ الحياة نفسها تقوم على الوهم والفنّ والمظهر وبالخطأ، إنّها العناصر الأساسية التي دونها تنتفي كلّ خاصية للعيش.

ولكن فيلسوفنا يكتشف أنّ الأخلاق منذ أفلاطون لم تكن سوى إجماع واتفاق ضدّ الحياة، لأنّها طرحت مسألة الحقيقة واستبعدت الخطأ، وبذلك فهي استبعدت الحياة من دائرة اهتمامها. والحلّ يكمن إذن في تقويض صرح الأخلاق من أجل تحرير الحياة[1].

وهكذا فإنّ كلّ ما له صلة بجوهر الحياة مثل الخطأ والسيطرة والعنف يعتبر «شرّا» من وجهة نظر التقويم الأخلاقي الضعيف والمنحطّ.

ولكن نيتشه يعتبر أنّ الفعل يقوّم تقويما صحيحا انطلاقا من مدى حفظه للحياة وللنّوع ومزيد الارتقاء به[1] .

غير أنّ تقويم العبيد يذهب في اتّجاه النفي والحطّ من قيمة

---

(1) Nietzsche. F. La volonté de puissance. II. § 299 Trad.Bianquis. Gallimard. Paris 1937 .

(1) Nietzsche. F. Par-delà bien et mal. § 4. Gallimard. Paris 1971

الحياة، فقيمهم هي قيم القوّة، ولكنّها القوّة التي تكون في شكل ردّ فعل.

إنّ قيم العبيد تتأسّس انطلاقا من قول «لا» لقيم الأسياد.

وإذا كان السيّد يسعى إلى السيطرة على المرضى والضعفاء والعاجزين، فلأنّ هؤلاء ليست لهم المقدرة على إثبات الذّات، فيلجؤون إلى نفي كلّ ما هو قوّة وكلّ ما يسعى إلى الإثبات[1] .

وهكذا فإنّ أخلاق النفي الخاصة بالعبيد هي أخلاق منفعية، لأنّ العبد يسعى من خلال نفي قيم السيّد، إلى المحافظة على حياته والبقاء داخل خصوصيته المنحطّة[2].

إنّ العبد هو المريض الذي يتشبّث بالعيش ولا يجد وسيلة لذلك إلاّ بنفي الحياة. وبهذا المعنى يتحوّل الطيّب أو خالق القيم أو السيّد إلى «شرّير» في نظره. ونرى كيف أنّ أخلاق العبيد – في هذه الحالة – تقوم بعملية قلب للقيم تخوّل لها حفظ الحياة الضعيفة ومقاومة كلّ نزعة ارستقراطية. يمكن اعتبار العبد إنسانا مشرّعا ولكن تشريعه يذهب في اتجاه النفي لأنّ مجال الفعل لديه لا يتأسّس إلاّ بما هو انفعال وردّ فعل، قوامه قلب نظام المفاضلة الذي يؤسسه التشريع الأرستقراطي (تشريع الأقوياء).

---

(1) Ibid. § 260

(2) «La morale des esclaves est essentiellement une morale utilitaire ». Ibid.

وإنّنا في هذا المستوى بالذّات مطالبون بالكشف عن ملامح هذا التشريع الأرستقراطي الذي درجنا على تسميته مع نيتشه بـ «تشريع الأقوياء»، ومن أجل ذلك نتساءل: من هو الأرستقراطي؟ حتّى نتبيّن معالم التشريع والتقويم لديه.

يعتبر نيتشه أنّ الأرستقراطي لا يتحدّد بأعماله، فعديدة هي الأفعال والأعمال التي تدّعي أنّها أرستقراطية ومتميّزة. ولا هو يتحدّد كذلك بآثاره وإبداعاته، لأنّنا نجد الكثير من الآثار التي تعلن قرابتها للقيم الأرستقراطية.

ولكن ما يميّز الأرستقراطي عن غيره حقّا هي «الرّوح الأرستقراطية» التي تكون مفقودة لدى الآخرين، ومن خصائص هذه الرّوح الأرستقراطية هي احترامها لذاتها[1].

إنّ الأرستقراطيين هم الأسياد، وحقّ السيّد في تسمية الأشياء وإطلاق الأحكام عليها هو حقّ مطلق، إلى درجة أنّنا نرى في أصل اللغة نفسها علامات دالة على قوّة الأسياد، إنّهم هم الذين يقرّرون عن طريق اللّغة بأنّ «هذا الشيء على هذا النّحو أو ذاك» ويوجّهون كلّ

---

(1) «Je ne sais quelle certitude intime inhérente a l'âme aristocratique. quelque chose qu'on ne peut chercher, ni trouver, ni peut-être perdre. L'âme aristocratique a le respect de soi ». Nietzsche, F. La généalogie de la morale, 3éme dissertation, P.202, Trad. Hildenbrand et Gratien, Gallimard Paris 1971.

الأحداث الوجهة التي يريدون[1].

إنّ فئة الأرستقراطيين على خلاف جمهور العبيد تشعر بالتميّز والسموّ عندما تحدّد معنى «الخير» بما يتلاءم مع وضعها التراتبي في المجتمع.

وهكذا فإنّ الأرستقراطي يقصي من دائرة اهتمامه كلّ الأشخاص الذين يعبّرون عن المشاعر المخالفة لإحساسه بالتفوّق والتميّز، ويسعى قدر الإمكان إلى احتقارهم[2].

وبهذا المعنى فإنّ أخلاق السّادة يشرّعها من يسمّيه نيتشه «الإنسان الأرقى»، وهو صاحب «الفكر الحرّ» الذي تخلّص من الإرث الفكري البالي والتراث الرّوحي للإنسانية. وإنّ هذه الأخلاق هي أخلاق أرستقراطية، حيث يعشق الأرستقراطي السيطرة ويعتزّ بفائض القوّة لديه، يسلك سلوك القسوة تجاه الآخرين ويكره الضّعف والكذب والنفاق والتملّق والتسامح.

ولكنّنا نجد في المقابل، أنّ هذا الأرستقراطي يلجأ إلى العفو لا حبّا في العفو في حدّ ذاته وإنّما لكون القوّة لديه غزيرة، ممّا يجعلها تفيض على الآخرين. ولكنّه، مع ذلك، لا يقبل العفو الصادر من

---

(1) Ibid. 1ére dissertation. § 2. P 225.

(2) Nietzsche. F. Par-delà bien et mal. § 260. P 183 Œuvres philosophiques complètes. Trad Cornelius Heim. Gallimard 1971.

الآخرين لأنّ القوّة لديه تمكنّه طبيعيا من أخذ ما يريد[1].

وهكذا نرى أنّ السّادة هم الأقوياء على غرار العظماء والنبلاء والأرستقراطيين، إنّهم فلاسفة المستقبل القادمون على مهل، وأهمّ صفاتهم هي العنف والاستبداد والاستغلال، وبهذا المعنى هم وحدهم جديرون بخلق القيم التي تثبت الحياة الصّاعدة بما حبتهم الطبيعة من إرادة قوّة مميّزة[2].

ويتبيّن لنا انطلاقا من هذا التصوّر النيتشوي، أنّ ما يميّز أخلاق السّادة، بما هي أخلاق أرستقراطية، هو طابعها الخاص القائم على ضرورة التميّز والاختلاف.

وهذا ما يجعل السيّد الأرستقراطي ذلك الإنسان الذي يسعى إلى توسيع المسافة التي تفصله عن الآخرين لكي يثبت تفوّقه ويسيطر عليهم.

إنّ إثبات الاختلاف يعدّ في حدّ ذاته فعلا إيجابيا، لأنّ من خلاله يثبت السيّد مواهبه[1].

---

(1) عبد الرحمن بدوي: نيتشه، ص 174، وكالة المطبوعات – الكويت 1975

(2) يوحنا قمير: نيتشه بنيّ المتفوّق، ص 28، منشورات دار المشرق – بيروت 1993

(1) « Ce qui détermine les qualités des hommes, c'est leur situation relativement à la nature et aux autres hommes ». Nietzsche. F. La
=

وإنّ السيّد يمثّل جسدا سليما يختلف عن بقية الأجساد المريضة لكونه إرادة قوّة متجسّدة تبحث عن التعاظم والنموّ والسيطرة، ولكنّه لا يسيطر عن طريق الأخلاق وإنّما تتمّ سيطرته على الآخرين بواسطة انخراطه في الحياة، لأنّ الحياة نفسها ليست إلاّ إرادة قوّة. وإذا كان الأسياد يؤلفون الجسد الحيّ الذي يبحث عن السيطرة، فإنّ ذلك لا يتمّ إلاّ عبر الأحكام الإثباتية.

وهكذا يمكن اعتبار أخلاق الأسياد أخلاقا مع الحياة لا ضدّها، وبهذا المعنى فهي خلاّقة تستقي تشريعاتها من ذاتها ولا تحتاج إلى عالم خارجي يكون مصدرا للقيم إنّها أخلاق تستمدّ مصدرها من القوّة الصاعدة، ولأجل ذلك فهي تمثّل حالة صحيّة قصوى. ولكن هذه الخاصية بالذّات هي التي تجعلها، في كلّ لحظة، مهدّدة بالضعف والانقراض لتترك مكانها لأخلاق ضعيفة تعكس كلّ أنواع المرض لدى الكائن.

ويؤكد نيتشه من جهة أخرى، أنّ هذين النّوعين من الأخلاق قد يوجدان ويختلطان داخل الشخص الواحد.[1]

أمّا بالمقارنة مع أخلاق العبيد، تعتبر أخلاق السّادة احتقارية لأنّها تقوم أساسا على نوع من الإحساس بالتفوّق والثقة في النّفس

=

volonté de puissance. § 224. Trad Bianquis. Gallimard . Paris 1937

(1) Nietzsche. F. Par-délà bien et mal. § 260 Trad.Heim. Hildenbrand et Gratien. Gallimard 1971.

الذي يجعل السيّد يشعر بالتميّز، ومن ثمّة يؤسس نوعا من المفاضلة.

و إنّ معنى «الطيّب» ينشأ من هذا الموقف التمييزي، إذ أنّ الأسياد يعتبرون أنفسهم «الطيّبين» ويرون أنّ البقية «أشرار»، وأكثر من ذلك، فإنّ كلّ ما يزيد من قوّتهم ويثري حياتهم هو الطيّب بإطلاق، و«الشرير» هو من يسعى لإضعاف هذه الحياة والحطّ من قيمتها.

إنّ الأرستقراطيين يشعرون في قرارة أنفسهم أنّهم هم الذين يحدّدون القيم ويحكمون على الأشياء وعلى مدى صلاحيتها بالنسبة إلى الحياة التي يرغبون فيها، الحياة الصاعدة والقوية. وهكذا فإنّ أخلاق السادة هي أخلاق تعظيم الذات من حيث هي ذات مشرّعة لقيم الحياة[1]، وهي كذلك أخلاق إثباتية تثبت الذات وفي نفس الوقت تحدّد الآخر.

إنّ السيّد يقدّم نفسه بوصفه مصدر القيمة، وهو بالذات «الطيّب» الذي يؤسّس القانون ويشرّع أحكامه، لذلك تكون حقوق الآخرين جزءا من فيض القوّة التي يمنّ بها عليهم، و لكن ذلك لا يسمح له بأن يفرّط في علاقات السيطرة لأنّها علاقات حيوية محايثة للحياة نفسها.

Ibid(1)

القيم المضادة للحياة

أ- الشفقة:

لقد تبين لنا من خلال تحاليلنا السابقة أن عملية خلق القيم تتحدد في المنظور النيتشوي بطابعها المزدوج، ذلك أنّنا إزاء نمطين مختلفين من القيم الأخلاقية: قيم تعلي من شأن الحياة وتثبتها، وقيم تنفي الحياة وتحطّ من مرتبتها. إلاّ أنّ فعل خلق القيم هنا وهناك لا يكاد ينفصل عن «إرادة القوّة» من حيث أنّ هذه الإرادة هي المتحكّمة في صنع هذه القيم إثباتا أو نفيا، ولعلّ قيمة الشفقة، بهذا المعنى، هي إحدى القيم التي تنبع عن «إرادة قوّة» تنزع إلى النفي والحطّ من قيمة الحياة.

إنّ الشفقة كما يراها نيتشه تعلن عن التسامح تجاه الحياة الضعيفة الخالية من القوّة والقدرة، وهكذا تكون الشفقة نوعا من الحبّ للحياة، ولكن حبّا للحياة المريضة والارتكاسية حيث يكون النّصر النهائي للفقراء والعاجزين والمعذبين.

إنّ نيتشه يعتبر أنّ الشخص الذي يشعر بالشفقة هو شخص لا

يتسامح مع الحياة إلاّ حين تكون ارتكاسية، وهو في المقابل يعادي كلّ ما هو فاعل في الحياة.

فالإنسان الضعيف يتمكّن عن طريق الشفقة من نفي الحياة والحطّ من قيمتها، فهو يستخدم الحياة لينفي الحياة[1].

وأكثر من ذلك، تعتبر الشفقة من وجهة نظر نيتشه مضادة لقانون التطوّر الذي يمثّل قاعدة للانتقاء، إذ أنّ الشفقة تعمل على نسف هذا القانون لأنّها تستوعب داخلها كلّ ما لفظته الحياة وكان جاهزا للزّوال، إنّها، بهذا المعنى، وسيلة للدّفاع عن أولئك الذين ترفضهم الحياة وتقصيهم، وهي بذلك تعطي لهذه الحياة طابعها المتشائم والرّيبي.

وإذا كان الناس يعتبرون الشفقة فضيلة (و هي في الأخلاق الأرستقراطية ضعف)، بل أكثر من ذلك اعتبروها مصدرا لكلّ الفضائل، فلا يمكننا أن ننسى، في المقابل، بأيّة حال من الأحوال، أنّها سليلة فلسفة عدمية تجعل من نفي الحياة قاعدة لها[2].

ولمّا كانت قيمة الشفقة ترتبط أشدّ الارتباط بالعدمية أو هي إحدى منتجاتها، فإنّها بذلك (أي الشفقة) تتعارض مع جملة العواطف التي تنمّي في الإنسان القوى الحيوية، إنّها على العكس من ذلك تطبع

---

(1) جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، ص 192، ترجمة أسامة الحاج، بيروت 1993.

(2) Nietzsche. F. Le crépuscule des idoles : L'Antéchrist. § 7. P.199 Trad.Henri Albert. Mercure de France. Paris 1899.

الإنسان بمسحة من الكآبة والحزن التي تزرع لديه الشعور بمعاداة الحياة وكرهها. فلا خلاف أنّ الإنسان يضعف حين يشفق على الآخرين، وهكذا فإنّ الشفقة تزيد من شعور الفناء والعدم لدى الإنسان.

فعلى من يشفق الإنسان؟ إنّه يشفق على الضعفاء والبائسين والمغلوبين والمحرومين وكلّ الذين حكمت عليهم الحياة بالزّوال والفناء. لذلك فإنّ الشفقة تتعارض في جوهرها مع قانون الانتقاء والانتخاب لأنّها تحمي الفئة الضعيفة التي رفضتها الحياة ودحرتها دحرا حتّى أنّها لم يعد لها مكان في الوجود الممتلئ والقويّ وأصبحت في عداد من حكمت عليهم الحياة بالزّوال من هذا العالم.

إنّ نيتشه يبدي استغرابه من أولئك الذين تجرّؤوا واعتبروا الشفقة فضيلة من الفضائل الأخلاقية العليا، والحال أنّها لا تزيد عن كونها ضعفا فادحا في الكائن الإنساني.

وأبعد من ذلك فقد اعتبرها البعض أساسا لا بدّ منه لكلّ الفضائل الأخرى.

ولكن فيلسوفنا يذكّرنا دائما بأنّ أصحاب هذا الحكم ليسوا سوى شرذمة من العدميين الذين كرهوا الحياة فكرهتهم بدورها.

إنّ الشفقة هي ذلك الشعور البائس الذي يعارض نزعة حفظ الحياة والإعلاء من قيمتها.

ولقد كان شوبنهاور – من وجهة نظر نيتشه – عدوّا للحياة،

لذلك اعتبر الشفقة فضيلة من الفضائل الكبرى، والحال أنّها في الواقع، غريزة ضارة بالحياة لأنّ الحياة نموّ وبقاء وازدياد للقوّة لدى الكائن[1].

وفي جانب آخر من تحليله للشفقة بما هي «قيمة أخلاقية»، يعتبر نيتشه أنّ تثمينها وإعطاءها القيمة الكبرى في المجال الأخلاقي واعتبارها سلوكا إنسانيا راقيا، هو في الحقيقة من الأعمال الشنيعة للفلاسفة المحدثين دون سواهم، ذلك أن كلّ الفلاسفة القدامى أجمعوا على احتقار الشفقة ولم يتجاسروا على اعتبارها من الفضائل القصوى، ومن بين هؤلاء الفلاسفة نذكر أفلاطون وسبينوزا ولاروش فوكو La Rochefoucauld وكانط[2]، وكذلك أرسطو الذي اعتبر الشفقة حالة مرضية خطرة يجب أن يتعالج منها الإنسان من وقت إلى آخر، وكان ينصح برؤية الدراميات التراجيدية (المأساة) حتّى يتجمّد قلب الإنسان[3].

إنّ الشفقة تبدو لنا في هذا المستوى شديدة الارتباط بالحياة

(1) نبيل فرج: نيتشه: مجلّة «إبداع»، العدد 9 – السنة 2001، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(2) Nietzsche. F. La généalogie de la morale. § 5. P.220. Oeuvres philosophiques complètes. Trad.Hildenbrand et Gratien : 1ère dissertation. Gallimard. Paris 1971.

(3) نبيل فرج: نيتشه، مجلّة «إبداع»: العدد 9، السنة 2001، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الضعيفة حيث هناك علاقة وثيقة بين إرادة العدم لدى الكائن من جهة، وبين القوى الارتكاسية من جهة أخرى.

وحيث تبرز هذه العلاقة في تسامح إرادة العدم مع هذه القوى الارتكاسية النافية فتكون الشفقة شفقة تجاه الحياة الارتكاسية ولكن باسم قيم عليا تارة، وتارة أخرى هي شفقة الإله تجاه الإنسان الارتكاسي والضعيف.

إنّ الإله يشفق على عباده الضعفاء، ولذلك فهو الحامي الأوّل للحياة الارتكاسية الضعيفة.

وعندما يضجر الإنسان الارتكاسي يوما من هذه الشفقة ولم يعد يتحمّلها، فإنّه سيلجأ إلى قتل الإله ويضع نفسه مكانه، ويتخلّص بذلك من القيم العليا، ولن تبقى له إلاّ الحياة الارتكاسية المكتفية بنفسها[1].

ولكن زوال هذه القيم العليا بمجرّد «موت الإله» لا ينفي بتاتا المنظور العدمي الذي يهيمن على التاريخ من البداية إلى النهاية، لذلك يعتبر نيتشه أنّ العدمية هي محرّك التاريخ الإنساني، وهي في الأصل عدمية ارتكاسية ونافية وسالبة سواء كان ذلك في اليهودية أو المسيحية أو حتّى في فترات الإصلاح الديني أو كذلك في الإيديولوجيا الديمقراطية والاشتراكية.

---

(1) جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، ص 193، ترجمة أسامة الحاج، بيروت 1993.

وإذا كانت الشفقة تدلّ على ضعف الحياة، فإنّ نيتشه يتحدّث عن «الشفقة المضادة» وهي شفقة الأقوياء على أولئك الذين يشعرون بالشفقة. إنّ هؤلاء الضعفاء لم يفهموا إطلاقا بأنّ في الإنسان تجتمع خاصيتان متلازمتان: المادة والخلق.

إنّ الإنسان «مادة» ولكنّه كذلك فنّان وصانع، وإنّ معظم المتحدّثين عن الشفقة بما هي قيمة عليا، هم في الحقيقة لا يفهمون مغزى هذا الالتقاء، فالشفقة لديهم تتّجه صوب ما هو «مصنوع» في الإنسان، أي ما هو قابل للتطويع والتشكيل والتوجيه، ومن ثمّة فإنّ شفقتهم تنصبّ على كلّ ما يتألّم وكلّ ما ينتج عنه الألم بأيّ وجه من الوجوه، في حين أنّ شفقة الأقوياء هي شفقة من نوع خاص واستثنائي حيث تسيطر على كلّ الأنفس النبيلة وتقاوم كلّ نزعة لإضعاف الإنسان[1].

إنّ شفقة الضعفاء تتعارض مع الانفعالات المتوهّجة التي تمنح لمعنى الحياة طاقات إضافية، وهي تعمل في الاتجاه المعاكس لأنّها تستنزف الطاقة الحيوية للكائن، وبذلك فهي تعادي الحياة لأنّها تسلبها

---

(1) «Et notre pitié, ne comprenez-vous pas à quoi elle va, notre pitié inverse, qui se tourne contre la votre comme contre le pire amollissement, le pire affaiblissement de l'homme ». Nietzsche, F. Par-delà bien et mal, § 225, P.144.Trad.Cornélius Heim, Gallimard 1971.

ما به تكون قويّة.[1].

ويمكن القول كذلك بأنّ تجربة نيتشه الشخصية وحياته الخاصة تسمحان له بأن يكون حذرا أمام كلّ المشاعر «الرقيقة» النابعة من الآخرين أو الصادرة تجاههم، فما نسميّه عادة «حبّ الآخرين» ليس، في نظره، إلاّ ضعفا في الكائن يكون دالا على العجز الذي يكبّل الإنسان كلّما وجد نفسه وجها لوجه أمام غرائزه وانفعالاته، فيضطرّ إلى التصرّف بطريقة تتماشى ودرجة الضعف لديه.

وهكذا يمكن اعتبار الشفقة فضيلة المنحطّين دون سواهم. وإنّ نيتشه يعتبر في المقابل أنّ تجاوز كلّ المشاعر الرقيقة، بما في ذلك الشفقة، يعدّ في حدّ ذاته أحد مظاهر الفضيلة الأرستقراطية والنبيلة[2].

ولكن رغم أنّ فيلسوفنا يعتبر الشفقة من القيم التي يفضي بنا تحليلها وتأويلها إلى فهم الحياة الارتكاسية، فإنّه ينبّهنا، مع ذلك، إلى وجود مسائل أخرى أعمق من مسألة الشفقة أو اللذة أو الألم، يجب أن تنصبّ عليها تحاليلنا الفلسفية، وإلاّ تحوّلت كلّ أفكارنا إلى مجرّد فلسفة سطحية ساذجة إذا ما سجنت نفسها في حدود هذه المسائل المذكورة[3].

---

(1) Nietzsche. F. Le crépuscule des idoles : L'antéchrist. § 7P.198 – 199. Trad.Henri.Albert. Mercure de France. Paris 1899

(2) Nietzsche. F. Ecce Homo. P.25.Trad.Henri Albert. Gonthier 1971

(3) Nietzsche. F.Par-delà bien et mal. § 225. P.144. Trad.Cornélius Heim. =

ومن بين هذه المسائل التي يسعى نيتشه إلى التعمّق في تحليلها المسألة الدينية عموما والديانة المسيحية على وجه الخصوص وما يرتبط بها من قيم قد تعلن عن موقف ما من الحياة.

ب - القيم الدينية: المسيحية نموذجا:

إنّ الديانة المسيحية عملت طوال تاريخها على صنع وإنتاج جملة من القيم التي ناصرت كلّ النزعات التشاؤمية الحاقدة على الحياة والزاهدة في مباهجها، حسب التصوّر النيتشوي. ذلك أنّ الأخلاق المسيحية هي عبارة عن انتفاضة ضدّ الحياة، وإنّ هذه العداوة للحياة تصبح لدى المسيحيين أمرا شبه مقدّس.

ولكن بإمكاننا مع ذلك أن نكشف في هذه القيم الدينية عمّا يكون شكلا من أشكال الأكاذيب والتزييفات.

إنّ محاكمة الحياة انطلاقا من وجهة نظر كائن حيّ منعزل، كما هو الحال في المحاكمة المسيحية للحياة، لا يدلّ في عمقه إلاّ على درجة من الانحطاط لدى الكائن لأنّ قيمة الحياة لا تقاس من خارج الحياة بل تقاس بعيشها فعليا[1].

ويتأكّد لدى نيتشه أنّ سيطرة النظريات الرّوحانية الخالصة على

=

Gallimard 1971.

(1) Nietzsche. F. Le crépuscule des idoles. § 5. P.114. Trad.Henri Albert. Mercure de France. Paris 1899.

المجتمعات الإنسانية يتسبّب آليا في تحطيم القوى الذهنية للأفراد لأنّها تعلّمهم أوّل ما تعلّمهم كيفية احتقار أجسادهم ونفيها بما هي قيمة، ومن ثمّة نحن إزاء برنامج منظّم هدفه الأقصى الحطّ من قيمة الإنسان ذاته من خلال استهداف أهمّ الأبعاد الحيوية فيه، ونعني بذلك غرائزه.[1]

وإنّ نيتشه يعتقد أنّ المسيحية تفتقر إلى الأهداف المقدّسة، فهي لا تعلن إلاّ عن غايات خسيسة مثل نفي الحياة واحتقار الجسد والحطّ من قيمة الإنسان وذلك عن طريق اختراع مقولة «الذنب». وحتّى الوسائل التي تستخدمها المسيحية لتكريس هذه الغايات تبقى هي نفسها وسائل دنيئة وخسيسة. والكنيسة المسيحية لم تدخّر جهدا في سبيل إظهار فسادها، حيث جعلت من كلّ قيمة مجالا للاّقيمة، ومن كلّ حقيقة حقلا للكذب.

إنّ كلّ كلمة يتفوّه بها مسيحي تنطوي على أكاذيب، ويمكننا أن نعتبر من هنا فصاعدا أنّ كلّ أفعاله هي أفعال خاطئة من وجهة نظر غريزة الحياة، وبالمثل فإنّ كلّ القيم التي يؤسسها هي قيم مزيّفة. وعلى العكس من ذلك فإنّ كلّ الأشياء التي يكرهها المسيحي ويعاديها يمكن أن تكون لها قيمة كبرى. وهكذا فإنّ المسيحي وخاصة رجل الدين يصلح لأن يكون معيارا نقيس به قيمة الأشياء.

---

(1) Nietzsche. F. Aurore. § 39. P 43. Livre I. trad. Julien Hervier. Gallimard. Paris 1970 .

إنّ نيتشه يعتقد بأنّ تخليص الإنسانية من أمراضها يستوجب التخلّص من القيم المسيحية بما هي قيم ضدّ الحياة[1]، إذ أنّ النظريات الدينية التي تعتقد بأنّ العالم كما ينبغي له أن يكون، هو عالم موجود، هي في الواقع نظريات عقيمة وكسلى، بل هي غير فاعلة أصلا، لذلك تسعى جاهدة إلى افتراض وجود هذا العالم بما هو معطى أوّلي حتّى لا تكون هي نفسها مجبرة على إنشائه والحال أنّها عاجزة تمام العجز عن الاضطلاع بمثل هذه المهمّة، لذلك تراها تبحث عن كلّ الوسائل والطّرق التي تجعل من وجود هذا العالم أمرا مسلّما به بما هو «حقيقة» لا تقبل الدّحض[2].

وبهذا المعنى فإنّ عصرنا أصبح أكثر نضجا أي أكثر انحطاطا كما كان الحال في عصر بوذا، لذلك أصبحت المسيحية أكثر قدرة على الرّواج والسيادة في هذا المناخ العام الذي تزدهر فيه كلّ الأحكام الانحطاطية.

---

(1) «En effet, on n'est pas philologue et médecin, sans être en même temps antéchrist ». Nietzsche, F.§ 47. P. 249 : Le crépuscule des idoles : L'Antéchrist, Trad. Henri Albert, Mercure de France, Paris 1899.

(2) «La croyance que le monde tel qu'il devrait être existe, est réellement, c'est une croyance d'improductifs qui ne veulent pas créer un monde tel qu'il doit être ». Nietzsche, F. La volonté de puissance, Introduction, A. P.10, Tome II, Livre III, Trad. Bianquis, Gallimard, Paris 1937.

وإنّ غاية الأخلاق المسيحية – حسب نيتشه – لا تتمثّل في تحقيق السعادة الأرضية بل تتمثّل في تكريس الشقاء الأرضي بكلّ معانيه، لذلك نرى الإنسان المسيحي في ممارساته لتعاليم دينه يسعى دوما لأن لا يترك مجالا للفعل أو النجاح في الحياة، حتّى أنّنا يمكننا أن ننعت الديانة المسيحية بالسلبية لأنّها تطمس كلّ معالم النّجاح والإثبات في هذا العالم.

يجب أن نفهم مع نيتشه أنّ كلّ أشكال الفساد متماثلة ومتضامنة، وفي مقدّمتها الفساد المسيحي، والذي يمثّل باسكال Pascal نموذجه البارز، بالإضافة إلى شكل آخر من أشكال الفساد الذي هو بدوره نتيجة حتمية للفساد المسيحي، ونعني به الفساد الاشتراكي والشيوعي.

إنّ القاسم المشترك للفساد في هذه الأشكال المذكورة هو تبشيرها بوجود «عالم آخر» خارج هذا العالم الذي نحيا فيه.[1]

وفي هذا المستوى بالذات نلمس لدى فيلسوفنا مسحة واضحة من الإلحاد يتحدّث عنها هو بنفسه زاعما بأنّ هذا الإلحاد لا يعتبر بالنسبة إليه نتيجة لحدث عارض في حياته، بل على العكس تماما هو شيء طبيعي فيه، بل أكثر من ذلك يمثّل البعد الغريزي الذي يحدّده. إنّ نيتشه بطبعه يميل إلى التساؤل وحبّ الإطّلاع إلى درجة تجعله يطرح هذه الأسئلة العويصة حول الإله، والتي تعدّ عند بعض المفكّرين من قبيل المسائل الممنوعة التي لا يمكن التفكير فيها أو

(1) Ibid § 411. P.128. chap.IV.

حتّى مجرّد التجرّأ على طرحها[1].

ويعلن نيتشه بسخرية واضحة أنّه ربّما يغار شيئا ما من ستندال Stendhal لأنّه سحب منه أفضل تهكّم كان يمكن أن يصدر عن ملحد مثله قائلا متحدثا عن الإله : « إنّ عذره الوحيد أنه غير موجود » .

ولكن نيتشه نفسه يقول في نفس السياق: « ما هو الشيء الذي يمكن أن يكون إلى حدّ الآن عدوّا للوجود؟: إنّه حتما الإله».[2]

وهكذا يمكن اعتبار الدين بمثابة قوّة ارتكاسية تقودها الإرادة إلى طريق النّصر الذي يتجلّى في المؤمن بمشاعر «الإحساس بالذنب» و«الخطأ» واعتناق المثل الأعلى الزّهدي، ويعبّر المثل الأعلى الزّهدي عن تلك الإرادة التي تجعل القوى الارتكاسية تنتصر.

وإنّنا نفهم هنا أنّ هناك نوعا من التواطؤ بين القوى الارتكاسية وشكل من إرادة القوّة. وعلينا أن نتذكّر جيّدا أنّ رجل الدين لا يختلط بالقوى الارتكاسية بل يقودها ويجعلها تنتصر، فهو يستفيد منها بشحنها بإرادة قوّة.

وهكذا يمكن القول بأنّ القوى الارتكاسية هذه لا تنتصر أبدا دون إرادة تقوّي أوهامها على غرار وهم «العالم الآخر» في المثل الأعلى الزّهدي.

---

(1) Nietzsche.F. Ecce Homo. P.38. Trad.Henri Albert. Gonthier. Paris 1971.

(2) Ibid. P.49.

وبهذا المعنى تنحصر مهام القوى الارتكاسية في الحطّ من الحياة ومن كلّ ما هو فاعل فيها وتكون هي نفسها إرادة عدم، إلى درجة تجعلنا نسلّم بوجود قرابة قويّة بين القوى الارتكاسية من جهة وبين العدمية من جهة أخرى، بحيث تكون العدمية محرّكا أساسيا للقوى الارتكاسية.[1]

وتبرز نزعة الحطّ من الحياة من خلال معاداة المسيحية للغرائز، ذلك أنّها تعتبر أنّ لا شيء يستحقّ منّا المقاومة والصّراع أكثر من هذه الرّغبات والغرائز الحياتية، باحثة بذلك عن نوع من «طمأنينة النفس» التي تحقّق في اعتقاد المسيحيين «السّعادة المطلقة للإنسان».[2].

إنّ المسيحية أعلنت الحرب ضدّ النّموذج الأرقى للإنسان عندما عملت على إقصاء كلّ الغرائز الحيوية لهذا النّوع بمعاداتها «للشرّير» و«الخبيث» أي للإنسان القويّ.

وفي مقابل ذلك انبرت القيم المسيحية تدافع عن كلّ ما هو ضعيف ومنحطّ وخسيس وناقص، إنّها جعلت من كلّ ما هو معارض للغرائز المثبتة للحياة القوية، مثالا يُحتذى به حتى أن كل محاولة لإثبات الحياة الصّاعدة أصبحت بمثابة الذّنب الذي لا يغتفر، وكلّ

---

(1) جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، ص 185 – 186، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدّراسات والنشر والتوزيع – بيروت 1993.

(2) Nietzsche. F. Le crépuscule des idoles. § 3. P112. Trad.Henri Albert. Mercure de France. Paris 1899

ذلك ليس إلاّ من قبيل المغالطة.

لذلك فإنّ نيتشه يعتبر أنّ كلّ ما يصرّح به رجل الدين على أنّه «الحقيقة» هو الخطأ بعينه، وبذلك يمكن القول بأنّه حيثما يكون ثمّة تأثيرات دينية بأيّ وجه من الوجوه، يكون ثمّة كذلك قلب للتقويم حيث يتداخل ما هو «حقيقة» مع ما هو «خطأ». وهكذا يصبح «الحقيقي» كل ما يضعف الحياة وينفيها، وأما ما يقويها ويعلي من قيمتها فهو «الخطأ»[1].

إنّ القيم المسيحية، من منظور نيتشوي، تسعى إلى إنتاج الضّعف في صميم الوجود، ولكن حتى الديمقراطية والاشتراكية ليست إلاّ تواصلا وامتدادا للمسيحية، لأنّها جميعها تجعل من الضعفاء سادة على الأقوياء.

وإنّ الأديان السائدة في عالمنا مثل الهندوسية والبوذية والمسيحية تناصر كلّها الضعيف على حساب القوّي، وتحرّض الفقير على الغنيّ، وتبثّ الثورة في العبد على السيّد. ونجد أنّ المسيحية – على وجه الخصوص – تعادي العالم الأرضي والحياة والجسد والغرائز وتعتبر حبّ الذات والثّراء والمجد من الرّذائل والشرور التي من الضرورة تجنّبها، فتتحوّل بذلك إلى نزعة معادية للفرح والطموح ومكرّسة للشقاء والعدمية، فإذا ما نظرنا إلى أقصى طموح الديانة المسيحية، ماذا سنجد غير الزّهد والفقر والشفقة والتواضع...؟

---

(1) Ibid. § 9. P.202.

وإنّ ذلك الشعور بالضّعف الذي تنشره المسيحية لدى أتباعها هو الذي جعل العبيد يؤمنون بوجود إله، فالإله غير موجود ولكن الألم والعجز يجعلانه ضرورة ملحّة للدّفاع عن المرضى والبائسين، ولأجل ذلك صنع هؤلاء «العوالم الأخرى» احتقارا للأرض وللجسد رمز القوّة والقدرة: «إنّ العبيد اخترعوا الله، والسّادة قتلوه».[1]

إنّ القيم المسيحية، بهذا المعنى، تعدّ عند نيتشه من أهمّ أسباب ضعف الإنسان، وهي تحول دون تفوّقه وتميّزه لذلك يدعو فيلسوفنا إلى هدم تلك القيم. وأكثر ما يعاب على تلك القيم الأخلاقية المسيحية أنّها عديمة الارتباط بالواقع، فليس ثمّة في المجال الدّيني أو الأخلاقي غير علل وأسباب خيالية على غرار «الإله» و«الرّوح» و«القدر»، وحتّى النتائج المترتّبة عن هذه العلل والأسباب هي من نفس القبيل الخيالي على غرار «الشعور بالذنب» و«العقاب» و«الغفران»...[2].

والإله نفسه، في التصوّر المسيحي، يأخذ كلّ الصفات التي تجعل منه معاديا للحياة، فهو إله المرضى والضعفاء والمسحوقين، وهو أكثر من ذلك، روح صرف، وبهذا المعنى نحن أمام واحدة من أبرز النظريات المشوّهة للألوهية. ذلك هو الإله المسيحي الذي يمكننا

---

(1) يوحنّا قمير: نيتشه نبيّ المتفوّق، ص 30، منشورات دار المشرق، بيروت 1986

(2) Nietzsche. F. Le crépuscule des idoles. § 15. P.207. Trad.Henri Albert. Mercure de France. Paris 1899.

وضعه في أدنى درجة من درجات تطوّر النموذج الإلهي عند الشعوب.

وهكذا، عوضا عن أن يكون الإله عامل إثبات أبديّ للحياة نجده في المسيحية يتحوّل إلى عدوّ للحياة ومناقض لها، حتّى أنّ الدّين المسيحي كثيرا ما يعلن الحرب على الحياة باسم هذا الإله.[1]

وفي هذا السياق بالذّات نجد أنّ الكثيرين تحاملوا على نيتشه بسبب عبارته «موت الله»، غير أنّ هذه العبارة لا تُفسّر حرفيا، لأنّها تحيل إلى رموز، وهي تشبه كثيرا عبارة «موت الإنسان» عند البنيوية، فليس هناك «موت»، وكلّ ما في الأمر أنّ الحديث يدور عن المفاهيم والأفكار ودورها المعرفي، أي أنّ الحديث في الحالتين ليس عن الإله نفسه ولا عن الإنسان بوصفه إنسانا، ولكن الحديث يكون عن «فكرة الإله» وعن «مفهوم الإنسان»[2].

ومع ذلك يقترن نقد المعرفة بالضرورة – لدى نيتشه – بمقولة «موت الله » خاصة في الأشياء التي لا علاقة لها بالدين أو بالأخلاق . وبهذا النقد بالذات والمقترن بحدث «موت الله» ... تتأسّس الحياة من

---

(1) «La conception chrétienne de dieu – Dieu, le Dieu des malades, Dieu, l'araignée, Dieu l'esprit – est une des conceptions divines les plus corrompues que l'on ait jamais réalisées sur terre » Ibid, § 18, P.210 .

(2) حسن طلب: فلنرقص مع نيتشه: مجلّة «إبداع»، العدد 9، سبتمبر 2001، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

جديد بعد أن تتخلّص من الأوهام الدّينية والأخلاقية التي كثيرا ما كانت بمثابة الأحكام المسبّقة المكبّلة للقوى الحيوية لدى الكائن.

إنّه نقد نتبيّن من خلاله مدى عداء المسيحية للحياة، فهي لها كراهية غريزية وحاقدة على الحياة نفسها بسبب أنّ الحياة مبنية على الاختلاف، وحتّى الفنّ قائم على الوهم والتخيّل وبالخطأ. فالمسيحية مصابة بالغثيان ومشمئزة من الحياة الأرضية لذلك فهي تؤمن بحياة أخرى أفضل.

إنّ كراهية العالم في المسيحية تظهر في إدانة العواطف والخوف من الجمال واستبعاد اللّذة الحسيّة[1] .

ويتبيّن لنا كذلك أنّ قيم وأخلاق المسيحية هي من صياغة العبيد لمحاولة هزّ أركان توازن القوّة الخالصة التي تمّ إرساؤها على يد الأرستقراطية المنتصرة.

إنّ نيتشه يدين كلّ ما صوّرته الفلسفات والعلوم على أنّه «حقيقي» باعتبار أنّ هذا «الحقيقي» المزعوم يعمل على تكريس حياة العبودية والتخلّف منذ الفلسفة الأفلاطونية إلى ظهور الأخلاق المسيحية والنظام السياسي الديمقراطي.

وفي المقابل، يرى نيتشه أنّ الحياة ليست إلاّ إرادة القوّة. إلاّ أنّه عجز عن إيجاد المبرّر الذي بمقتضاه تتألّم الإنسانية وتتعذب: فقد

(1) نفس المرجع.

رفض الفلسفة اللاّهوتية باعتبار أنّ أخلاقها هي أخلاق الضعفاء والعبيد حيث تعدّ محبّة الغير وإنكار الذات والخضوع من الفضائل، ومن هنا أعلن نيتشه عن «موت الله».[1]

وهكذا فإنّ اكتشاف الأخلاق المسيحية يعدّ كارثة حقيقية لا مثيل لها في التاريخ البشري. وإنّ الذي اكتشف هذه الأخلاق اكتشف في نفس الوقت لا قيمة كلّ القيم.

وحتّى مقولة «الإله» جعلت لكي تكون مناقضة للحياة وتلخّص كلّ المشاعر السلبية تجاهها من احتقار ورفض وحطّ من القيمة. وحتّى فكرة «العالم الآخر» أو «عالم الحقيقة» لم يقع اختراعها إلاّ تحقيرا للعالم الوحيد الموجود فعليا، لكي لا يبقى لنا أيّ هدف إنساني يتعلّق بواقعنا الأرضي.

وإنّ هذا المشروع الخسيس في إفقار الحياة من كلّ ما هو إنساني، يسهر عليه ويوجّهه رجال الدين، الذين يمثلون، في نظر نيتشه، أبرز أعداء البشرية الأشرار، والشّر لديهم ناتج عن كونهم الأقلّ قوّة، وهذا الافتقار للقوّة يولّد بداخلهم شعورا بالكراهية تجاه الآخرين. ويمكن القول بأنّ أكثر الناس شعورا بالحقد والكراهية في التاريخ

---

(1) «La vie prend fin là ou commence le royaume de dieu » Nietzsche. F. Le crépuscule des idoles: La morale en tant que problème. §4. Trad.Henri Albert. Mercure de France. Paris 1899.

الإنساني هم رجال الدين.[1]

إنّ رجل الدين، في التصوّر النيتشوي، هو المنقذ والرّاعي والمدافع عن القطيع المتألّم، ومهمّته التاريخية تتمثّل في السيّطرة على المتألّمين والمرضى، وهذه هي مملكته المحبّذة التي يجد فيها سعادته القصوى.

ولكن يجب على رجل الدّين أن يكون هو نفسه مريضا لكي يفهم هؤلاء المرضى والعاجزين ويتواصل معهم، وفي المقابل لا بدّ أن يكون قويّا ومتحكّما في ذاته أكثر من الآخرين إذا أراد فعلا أن يفوز بثقتهم ويفرض عليهم خشيته.

إنّه مطالب بالدّفاع عن القطيع وأن يكون عونا لهم وسندا. ولكن يدافع عنهم ضدّ من؟ إنه يدافع عنهم ضدّ الأصحاء والمعافين، فيكون بذلك عدوّا مباشرا لكلّ ما هو صحّي وطبيعي ولكلّ ما ينطبع بالقوّة والغريزة والعنف.[2]

وبهذا المعنى تكون العقيدة المسيحية في أساسها تضحية بالحريّة وبالفرح وبالثقة في النفس، بل هي أكثر من ذلك تحطّ من

---

(1) Nietzsche. F. La généalogie de la morale. œuvres philosophiques complètes. § 7. P.231. Trad. Hildenbrand et Gratien. 1ére dissertation Gallimard 1971.

(2) Nietzsche. F. Par-delà bien et mal. § 15.P 315. Trad Cornélius Heim. Gallimard 1971.

قيمة الذات نفسها.

وإن ما يسيطر على هذه العقيدة هي تلك المشاعر والأحكام الدينية التي تخاطب الوعي المريض والمعقّد، وتعبّر عن درجة خضوع النفس المتألّمة، هذا الخضوع الذي يسمّى «الإيمان».

إنّ الحياة في المثل الأعلى الزّهدي عبارة عن طريق تسلكه البشرية خطأ، ولمّا كنّا قد ضللنا طريقنا، كان إذن من المفروض علينا أن نسلك اتجاها معاكسا.

أمّا إذا ما كنّا مصرّين على إتّباع نفس الطريق فنحن نرتكب إثما وذنبا كبيرين.[1]

ويلاحظ نيتشه أنّه يلزمنا في عصرنا الحديث الكثير من الشجاعة والقوّة لفهم حقيقة هذه القيم المسيحية، إذ أنّ القوّة وحدها كفيلة بأن تقرّبنا من «الحقيقة».

وحينئذ فقط سيتبيّن لنا أنّ قيم الحياة التي يرفضها المسيحيون وأمثالهم من العدميين تنتمي في الأصل إلى نظام أرقى في السلّم التفاضلي للقيم من تلك التي تنتجها غريزة الانحطاط لديهم.

وهكذا فإنّ المسيحية هي هذا النّفي لإرادة الحياة الذي يتجسّد في الدّين، لذلك تسعى النيتشوية إلى تقويض الأركان الدينية من جذورها فيصرخ نيتشه: «أنا لست إنسانا أنا ديناميت» معلنا بذلك أنّه

(1) Ibid § 11. P.307.

لا يسعى إلى تأسيس أيّ دين، لأنّ الأديان في نظره من شؤون العامة ولا بد للأسياد والأقوياء أن يتخلّصوا منها.[1]

وإنّ الفلسفة نفسها مدعوّة إلى التخلّص من كلّ النزعات الروحيّة والدينية التي سيطرت عليها في كلّ مراحل تاريخها. فمنذ مولدها كانت الفلسفة تتخفّى وراء أشكال متعدّدة ومنفصلة عنها على غرار «الإنسان المتأمّل» ورجل الدين والساحر والإنسان المتديّن وكلّ «نموذج إلهي» من هذا القبيل.

ويعتبر نيتشه في هذا السياق أنّ المثل الأعلى الزهدي كثيرا ما قدّم للفيلسوف صيغا مثالية للوجود مثل نفي العالم وكره الحياة واحتقار الحواس، ولقد مثّلت هذه الصّيغ «أساس» الموقف الفلسفي إلى حدود العصر الحديث.

ولم يكن للفلسفة أن توجد قديما لولا تلك الحماية التي وفرها لها المثل الأعلى الزّهدي.

ويتساءل نيتشه: هل هناك اليوم من الإرادة والشجاعة والثقة في النفس وروح المسؤولية ما يجعل وجود «الفيلسوف» الحقيقي أمرا ممكنا[1] ؟

---

(1) «J'ai besoin de me laver les mains, après avoir été en contact avec les hommes religieux ». Nietzsche. F. Ecce Homo, P.153. Trad. Henri Albert, Gonthier, Paris 1971.

(1) Nietzsche. F.La généalogie de la morale, œuvres philosophiques =

ولكن رغم هذه الصرخة النيتشوية، نجد أنّ فيلسوفنا لا يرجو خيرا من هذه القيم المسيحية الرّائجة ولا هو يرى في مستقبلها أيّة إمكانية للإصلاح. إذ أنّ المسيحية تبقى بالنسبة إليه الكره القاتل للأسياد على الأرض ولكلّ الفئات النبيلة والأرستقراطية، ولكنّها في نفس الوقت تدخل في نوع من المنافسة مع هؤلاء. (يقول المسيحي: لنترك لهم «الجسد» إنّنا لا نريد إلاّ «الروح» إنّها ديانة منتجة لقيم معادية للحريّة والاعتداد بالنفس والشجاعة، زد على ذلك أنّها تمقت الحواس وتعادي اللّذة. ويمكن القول- تبعا لذلك - بأنّ المسيحية دين ضدّ الفرح عموما[1].

وما مقولات «الآخرة» و«خلود الرّوح» و«الرّوح» نفسها إلاّ مجرّد أدوات يستخدمها رجال الدّين لكي يصبحوا سادة على الضعفاء والمرضى، وبواسطتها يتمكّنون من المحافظة على سيطرتهم وسيادتهم تلك.

واللاّفت للانتباه لدى نيتشه أنّنا كلّنا نعلم هذه الأمور، ولكن الأحوال باقية على ما هي عليه منذ زمن بعيد.

والأغرب من ذلك أنّنا نقيس الزّمن إنطلاقا من هذا اليوم

=

complètes. § 10. P.305. 3éme dissertation. Trad. Hildenbrand et Gratien. Gallimard. Paris 1971.

(1) Nietzsche. F. Le crépuscule des idoles : L'Antéchrist. § 21. P.214. Trad. Henri Albert. Mercure de France. Paris 1899 .

الوضيع الذي أعلنت فيه المسيحية عن أوّل ظهور لها، وكان الأجدر بنا أن نقيسه إنطلاقا من آخر يوم في حياة هذه الدّيانة. وفي هذا اليوم الأخير بالذات سيعلن نيتشه عن مشروعه الجديد: «تحويل كلّ القيم» "Transmutation de toutes les valeurs "[1] .

(1) Ibid. § 52. P.274

الدعوة إلى قلب القيم

أمام تفاقم مظاهر العدمية البائسة وتفشّي قيم الضعف في المجتمعات الحديثة كان المشروع النيتشوي مبشّرا بظهور قيم جديدة ترتكز أساسا على قلب القيم السائدة الضعيفة وتعويضها بما هو أشدّ قوّة وأكثر تشبّثا بالحياة.

إنّ تحليل نيتشه لمسألة العدمية يعدّ الرّكن الأساسي لفلسفته القائمة على مشروعه المعلن: «قلب كلّ القيم».

ولعلّ بلوغ العصر التراجيدي للفكر الإنساني يتحدّد أساسا في اللحظة التي تطرح فيها الإنسانية سؤال: كيف ننتصر على العدمية؟ والإجابة النيتشوية تكون على النحو التالي: «قلب كلّ القيم».[1]

إنّ العدمية يمكن أن تكون مرحلة انتقالية تهيئ لظهور القوى التي بمقدورها قلب القيم وتأكيد وجود عالم وحيد هو عالم الصيرورة

---

(1) Deschamps. Jacques : Introduction à une lecture de la «Généalogie de la morale». P.67.In «La généalogie de la morale». Nathan. 1984.

أو العالم الظاهر. ولأجل ذلك نرى نيتشه يتساءل عمّا إذا كانت العدمية المطلقة مرحلة ضرورية ولا بدّ منها لتأسيس المشروع الفلسفي المستقبلي المتعلّق بقلب كلّ القيم.

ولعلّه من الأولوية المنطقية القول بأنّ تحقيق هذا المشروع ينتج بالضرورة عن بلوغ هذه المرحلة من العدمية، حيث تكون إرادة القوّة متحفزة لردّ فعل قويّ تسعى من خلاله إلى تأسيس القيم الجديدة.[1]

وإنّ نيتشه يريد لهذه القيم الجديدة أن تكون مخالفة لكلّ ما هو سائد وشاملة لكلّ ميادين الحياة، إنّه يبحث عن ملامح عصر جديد تحكمه أحاسيس ومشاعر قويّة مثل تلك التي سادت في العصور العظيمة وميّزت الفئات الاجتماعية الاستثنائية، فهو لن يرضى بعد اليوم بالقيم الوضيعة للمنحطّين.

إنّ المجتمع الجيّد، بهذا المعنى، هو ذلك المجتمع الذي لا يرضى بغير القيم الأرستقراطية يدين بها، ويجب أن يتجلّى ذلك في الموسيقى[2] والسياسة والأدب والفكر، وفي كلّ المجالات الإبداعية.

---

(1) «La volonté de puissance. essai d'une trans-valuation de toutes les valeurs » : Cette formule exprime une réaction qui est mon principe et ma tâche ; c'est un mouvement qui dans je ne sais quel avenir abolira ce nihilisme absolu. mais qui le présuppose logiquement et psychologiquement. qui ne peut venir qu'après lui. que de lui ». La volonté de puissance § 9. P.15.

(2) «(La musique) :Il faut qu'elle soit sereine et profonde comme une =

وفي انتظار إتمام مشروع قلب القيم، يعتبر نيتشه أنّ كلّ الأشياء قبله كانت منظّمة بطريقة مقلوبة رأسا على عقب، ولعلّ كتابه «غروب الأوثان» (Le crépuscule des idoles) هو بمثابة الإعلان الرّسمي لبداية النهاية «للحقائق» القديمة.[1]

إنّ المسألة الهامة التي تشغل بال فيلسوفنا هي مسألة الثقافة الحديثة، هذه الثقافة التي تعيش على الاعتقاد في القيم، وإنّ القيم التي تحدّد هذه الثقافة (القيم المسيحية، النزعة التشاؤمية، العلم، العقلانية، أخلاق الواجب، الديمقراطية، الاشتراكية...) ليست في الحقيقة إلاّ مجرّد أعراض للانحطاط ولحياة خفت بريقها وسارت نحو الانحلال.

ولكن فلسفة نيتشه هي مجهود لا ينقطع لمواجهة التيّار الجارف وردّه على أعقابه وذلك عن طريق مشروع فيلسوفنا المتمثّل في قلب القيم ووضع إرادة القوّة في مرتبة أولى بما هي العنصر القادر على إثبات الحياة في عمقها وامتلائها.

إنّ أساس عملية قلب القيم ليس التفكير والتحليل ولكنّه في الأصل عملية إثبات للقوّة والمقدرة.

ولكن نلاحظ كذلك أنّ هذا القلب يأخذ شكلا تبشيريا خاصّة في كتاب نيتشه «هكذا تحدث زرادشت» «فالإنسان الأرقى» الذي

=

après-midi d'octobre » : Nietzsche. F. Ecce Homo. P.56. Trad.Henri Albert. Conthier. Paris 1971.

(1) Ibid. P.138

يبشّر به «زرادشت» ليس استهلاكا للنموذج الإنساني.

إنّ نيتشه يرى أنّ «الإنسان الأخير» «Dernier homme» Le هو الإنسان الذي رتّب كلّ شيء لأجل تفادي المخاطر، وهو في قمّة سعادته بما أنجز. ولكن فيلسوفنا يعلن في المقابل أنّ الإنسان هو شيء يجب تجاوزه، وأنّه من حيث هو إنسان وسيلة وليس هدفا في حدّ ذاته.

وإنّ «الإنسان الأرقى» مسكون بهاجس حبّ المخاطر خاصة وأن إرادة القوّة هي المحدّد الحقيقي لإرادة الحياة. ويمكن اعتبار قصيدة «زرادشت»، تبعا لذلك، رواية لمسيرة من المخاطر يخوضها البطل، هذه المخاطر التي تجعل حضارتنا الحديثة تستنجد بالإنسان الأرقى لمواجهتها[1].

وإنّ نيتشه يعتبر، من جهة أخرى، أنّ مهمّة «الإنسان الأرقى» لا تتمثّل في مواصلة تلك الأعمال التي اضطلع بها فقيه اللغة (الفيلولوجي) والفيلسوف المتشائم والعالم والفنّان، فلا أحد من هؤلاء استطاع أن يتجاوز ذاته.

إنّ الإنسان في نظر نيتشه، لا يرقى إلى أعلى درجاته إلاّ حين تندثر هذه الأشكال السائدة[1].

---

(1) Bréhier. Emile : Histoire de la philisophie. P.129 – 130. Ed.Cerés. 1995.

(1) «Le pessimiste. le philologue et le savant. l'artiste..... aucun d'eux =

وإذا كانت الإنسانية قد دأبت على الاعتقاد بأنّ قيمة أي فعل تكمن في الهدف والمقصد من ورائه، فإنّ نيتشه يتساءل: ألسنا مدعوّين اليوم، أكثر من أيّ وقت مضى إلى القيام بعملية قلب وتحويل للقيم؟ وإنّ ذلك لا يتمّ في نظره، إلاّ من خلال تعميق التفكير في ذواتنا وصياغة تصوّر جديد وأكثر عمقا للإنسان[1].

في هذا المستوى بالذات أقحم نيتشه مقولة: «الإنسان الأرقى» «Surhomme» بما هو الإنسان الحامل لراية التغيير والقلب للقيم السائدة، ولكن نلاحظ أنّ هناك الكثير من سوء الفهم لما يعنيه فيلسوفنا بـ «الإنسان الأرقى» من ذلك أنّ البعض اعتبره كائنا خارقا ولا علاقة له بالأرض، وعلى العكس من ذلك يذهب التصوّر النيتشوي إلى أن هذا الإنسان ليس «سوبرمان» « Superman» لأنّ كلمة « Surhomme» تقال بالألمانية « Ubermensch» و« Mensch» تعني الكائن الإنساني.

وقد نتج بعض الخلط كذلك من الاستعارة التي استخدمها «زرادشت» في تعريفه لـ «الإنسان الأرقى» معتبرا إيّاه، في علاقته بالإنسان، مثل الإنسان في علاقته بالقرد . ولقد أساء البعض تأويل

=

n'a su surmonter son propre dégoût. Le surhomme n'est pas fait pour continuer leur tâche ». Ibid. P.131

(1) Nietzsche. F. Par-delà bien et mal. œuvres philosophiques complètes. Trad. Cornélius Heim § 32. P 51. Gallimard. Paris 1971.

هذه المماثلة، والحال أنّنا مدعوّون إلى المعرفة الجيّدة بكيفية تفكيك المعاني الحقيقية لهذه الصورة العميقة، إذ أنّ الإنسان الذي نتجاوزه ليس النّوع الإنساني، وإنّما هو المثل الأعلى للإنسان الحديث، أي ما يعرف بالإنسان «الطيّب» الذي يعتبر من إنتاج التعاليم المسيحية على امتداد ألفي سنة.

إنّ هذا الإنسان بالذات، ابن المسيحية المدلّل، تعلّم كيف يسيطر على غرائزه ويتحكّم فيها ويتخلّص نهائيا من جسده، بل إنّ الغرائز والجسد بالنسبة إليه، أصبحت دافعا أساسيا لاحتقار الحياة الأرضية.

أمّا بالنسبة إلى «زرادشت» فهو لا يرى في «الإنسان الأرقى» مخلّصا ومنقذا للإنسان من سلطة غرائزه وجسده، بل إنّ مهمّة هذا «الإنسان الأرقى» هي إعادة المعنى للأرض والحياة وأن يجعل الإنسانية تحيا من جديد حياة الغرائز.

ومن أجل تحقيق مشروعه هذا، فإنّ هذا الإنسان مطالب بأن يكون «لا أخلاقيا» لكي يتسنّى له قلب كلّ قيم الضعف القديمة وخلق قيم جديدة تثبت الحياة القوية والصاعدة. وهكذا يمكن القول بأنّ التأويل الصحيح يجعلنا نفهم بأنّ العلاقة أكيدة بين الفرد الذي يعيش وفق غرائزه وبين الإنسان المسيحي الذي يحاكم هذه الغرائز باسم قيم عليا تنفي الحياة. وهنا بالذّات تتنزّل المهمّة الأساسية «للإنسان الأرقى».

إنّ نيتشه في كتابه (L'Antéchrist) يؤكد بوضوح أنّ الأمر لا يتعلّق بتجاوز النوع الإنساني، ولكن الأمر يتعلّق أساسا بالرّفع من

مستوى «نموذج الإنسان» الذي سيكون جديرا بالحياة. ويمكن القول، بهذا المعنى، إنّ الذي يكون جديرا بالحياة هو ذلك الذي لا يبحث عن الهروب منها ولا عن احتقارها والحطّ من شأنها أو التطلّع إلى «عالم آخر» أفضل منها.

وهناك من جهة أخرى، من رأى في «الإنسان الأرقى» صورة من الصور الداروينية التي تمثّلها مقولة الانتقال من القرد إلى الإنسان ثمّ إلى «الإنسان الأرقى»، ولكنّنا بالرّجوع إلى كتاب نيتشه (L'Antéchrist)، نجد أنّ فيلسوفنا يستبعد ضمنيا هذه الرؤية، فلا يتعلّق الأمر في نظره بانتقال الإنسان إلى شيء آخر ولا أن يخضع إلى عملية «تطوّر» بالمعنى البيولوجي حتّى يصبح «نوعا أرقى».

إنّ المسألة أبسط من ذلك بكثير، ذلك أنّنا إزاء الإعداد لنموذج من البشر القادرين على خلق قيم جديدة وردّ الاعتبار للغرائز النافعة للحياة.

إنّه باستطاعتنا – حسب نيتشه – أن نتخيّل وجود هذه النماذج الراقية من البشر دون أن يمرّ ذلك بعملية تطوّر بالمعنى البيولوجي للكلمة. وهكذا، بإزالتنا لكلّ خلط أو سوء فهم، يتبيّن لنا أنّ «الإنسان الأرقى» كما أراده «زرادشت» هو الإنسان الذي أعاد المعنى والقيمة للأرض[1].

---

(1) Sophie-Jean Arrien : Le » Surhomme » : Le point Hors-Serie. n° 15. Sept-Oct.2007.

إنّ ظهور «الإنسان الأرقى» يعدّ غاية قصوى بالنسبة إلى نيتشه لأنّ على عاتق هذا الإنسان بالذّات تتمّ عملية التقويم بطريقة مختلفة عن السائد، بحيث يكون أساس هذه العملية التقويمية «تجاوز الإنسان».

وانطلاقا من عملية التقويم الجديدة يتوصّل «الإنسان الأرقى» إلى خلق قيم تتعارض مع ما هو رائج. وهكذا يمكن اعتبار هذا الإنسان ذاتا مختلفة عن الإنسان العادي، إنّه نموذج جديد مختلف عن النموذج الإنساني، أو قل هو «طريقة جديدة في التفكير».

إنّ التغيير الذي يدخله «الإنسان الأرقى»، ليس تغييرا في القيم في حدّ ذاتها أو تحريرا لها، بل هو أكثر من ذلك، «قلب في العنصر الذي تشتق منه قيمة القيم، إنّه تقويم على أساس مختلف»[1].

إن تحويل القيم، أو ذلك التغيير في «العنصر الذي تشتقّ منه قيمة القيم» كما ورد على لسان دولوز، يحمل في مضامينه أهمّ عناصر المشروع النيتشوي والمتمثّلة في تكريس الإثبات بما هو إرادة قوّة، والتأكيد على الإرادة بما هي إرادة إثباتية.

وبهذه الطريقة نتلمّس الطريق الواثقة نحو انتصارنا النهائي على العدمية، ولكنّه انتصار على عدمية ناقصة وغير منجزة فعليا، ولعلّ التحويل والقلب الذي سيتغلّب على هذه العدمية هو «الشكل الكامل

(1) جيل دولوز: نيتشه والفلسفة ص 210، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1993.

والمنجز الوحيد للعدمية بالذات». وهكذا يصبح التحويل عدمية تامة بواسطة نقد القيم[1].

وإنّ نقد القيم مهمّة «الإنسان الأرقى» فهو الفنّان الكامل الذي من خلاله تتجسّد إرادة القوّة نفسها، وهو الإنسان الذي يمثّل الفردانية في أبهى مظاهرها، حيث تكون الذات ذاتا كونية[2].

ولا يقصد نيتشه بالفرد الإنسان المنعزل الذي لا يحفل بحركة تطوّر الإنسانية، وإنّما هو الإنسان الذي «تحيا فيه الإنسانية» لأنّه موجود في قلب الحياة النابض جسدا وغريزة.

إنّ قيمة الفرد تكمن في أن يكون في مستوى عال من الوجود من حيث القوّة والمقدرة وانتعاشة الغرائز الحيوية، وتلك هي خصال «الإنسان الأرقى».

وأمّا عن علاقته بالمجموعة التي تعيش معه فهو لا يعيرها اهتماما إذا كانت لا تساهم في سموّ ذاته وتحقيق امتيازه وتفوّقه.

وبهذا المعنى فإنّ الفردانية عند نيتشه تعني أساسا المحافظة على الفوارق الطبيعية بين الأفراد والإحساس القويّ بقيمة الذات بما هي ذات متميّزة ومتفوّقة على البقية.

---

(1) Nietzsche.F. La volonté de puissance. I . § 22. Trad.Bianquis. Gallimard. Paris 1937.

(2) Granier. Jean :Que sais-je ? Nietzsche. chap.IV. P.120.P.U.F.1985

وهـذا مـا يجعـل فيلسـوفنا كـذلك، مـن أكبـر المعـادين لفكـرة المساواة بين البشر، التي لا تتماشى في نظره، مع طبيعة الوجود ذاته.

إنّ الإنسان العادي لا قيمة له في حدّ ذاته سوى أنه وسيلة لخلق النـوع الممتـاز مـن البشـر، ولعـلّ أبـرز الشـروط لظهـور هـذا النمـوذج الأرقـى هـو أن يكـون الإنسـان قـادرا علـى كسـر كـل القـيم الأخلاقيـة والدينية والفلسفية السائدة، ولأجل ذلك يشترط توّفر عنصري القوّة والحريّة[1].

وهكـذا فإنّ المشـروع النيتشـوي «قلـب كـلّ القيـم» ينطـوي علـى نزعة رافضة تحتقر الحياة السائدة والمتعارف عليها، وإنّ ذلك يذكّرنا تماما ببعض نفحات المدرسة الكلبية التي تخبرنا عنها «الاستراتيجية الرّفضـية» لـديوجانس الـذي عمـل علـى الاسـتهزاء بالمواضـعات الاجتماعية والسياسية والتقاليد المتداولة وعلى الترفّع والسخرية من كلّ شيء بما في ذلك القيم الأخلاقية السائدة[2].

إنّ مـا يـنقص عصـرنا – مـن وجهـة نظـر نيتشـه – هـو ظهـور الفيلسـوف الـذي يؤوّل الأحـداث تـأويلا صـحيحا عوضـا عـن تحويلـه لتلك الأحداث إلى «قصائد شعرية». وإنّ هذا ما يزيد من يقيننا بأنّ

---

(1) عبـد الـرحمن بـدوي: نيتشـه، ص: 263، وكالـة المطبوعـات، الكويـت 1975

(2) بيتـر سـلوتردايك: «الإنجيـل» الخـامس لنيتشـه، ص: 77، ترجمـة علـي مصباح – منشورات الجمل – ألمانيا 2003.

الفعل الفلسفي لدى فيلسوفنا هو فعل تأويلي بدرجة أولى[1].

ولكن عندما تفشل كل المحاولات لظهور النماذج الإنسانية الرّاقية سنجد تفشّيا كبيرا لظاهرة مقاومة العبقرية والتميّز، ويسود حينئذ الانحطاط وتظهر النزعات المناصرة لكل ما هو عامي وخسيس.

وهنا بالذات تبرز قيمة النقد بما هو محرّر للذّات من سطوة الحياة المنحطّة، لذلك يدعو نيتشه إلى نقد الأخلاق السائدة وهدم «قيم العبيد» القائمة على مشاعر الضعف التي تحتقر الحياة وتحطّ من قيمتها، ولكنّه يدعو في نفس الوقت إلى خلق قيم جديدة تؤمن بالأرض والحياة والغرائز والقوّة والإقدام ومجابهة المخاطر إعدادا لظهور«الإنسان الأرقى»[2].

وإنّ «الإنسان الأرقى» هو أرفع إنسان وأسمى ما يمكن أن يوجد على الأرض، ولكنّه في نظر نيتشه إنسان «لم يظهر بعد»، إنّه فقط «الإنسان المأمول» الذي لا نعرف متى يظهر أو في أيّ مكان، ولكن يوم ظهوره «ما زال بعيدا».

ولكلّ هذه الاعتبارات يمكن القول بأنّ حديث فيلسوفنا عن «الإنسان الأرقى» فيه نوع من التبشير على غرار ما يحفّ بظهور

---

(1) Nietzsche .F. La volonté de puissance. § 51. P 30. Trad.Bianquis. Tome II. Livre III. Gallimard. Paris 1937 .

(2) يوحنّا قمير: نيتشه نبيّ المتفوّق، ص 31، منشورات دار المشرق – بيروت 1986 .

الأنبياء والمنقذين وقادة البشرية العظام.

ولكن نيتشه يعتبر «الإنسان الأرقى» أبعد ما يكون عن العظماء، لأنّ العظماء أقوياء من حيث هم أفراد، وضعفاء من حيث هم مجموعة، ذلك أنّ النماذج البشرية الدنيا أقوى بعددها ودهائها من النماذج العليا، وبمعنى ما، فإن أقوى الناس يكونون ضعفاء حين يواجهون غرائز «القطيع» المنظّمة وجبن الضعفاء وعددهم الكبير، وكأنّ الطبيعة قاسية على المحظوظين والمتميزين، تراعي المنحطين وتحميهم وتحبّهم.[1]

وإذا كان نيتشه يضع على عاتق «الإنسان الأرقى» كلّ ما فشلت الإنسانية في القيام به من تحويل للقيم الأخلاقية، فإنّه ينبّهنا مع ذلك أنّ نجاح هذا المشروع لا يتمّ إلاّ لحظة الإعلان عن «موت الله»، إذ أنّ هذا الحدث هو شرط ظهور القيم الجديدة. وإذا لم نجعل من هذا الموت حدثا عظيما ونصرا أبديا على أنفسنا، فسندفع ثمنا باهضا وسنجرّ أذيال الخيبة لعصور طويلة[2].

إنّ مشروع نيتشه لنفي القيم الأخلاقية السائدة لا يعني بالمرّة نفي عصور من الحياة الأخلاقية التي عاشها الناس من قبل وفق رؤية قيمية معيّنة، بل يعني نفي المبادئ والمسلّمات الأخلاقية، ورفض اعتبار الأخلاق تأويلا صحيحا للأشياء، واقتراح بدائل تأويلية لا تكون

(1) Ibid .

(2) Nietzsche .F. La volonté de puissance. chap. IV. § 424. P.133

بالضرورة نابعة من وجهة نظر أخلاقية.

وهكذا فإنّ نفي الأخلاق ليس رفضا للأفعال الأخلاقية والدّفاع عن النزعات اللاأخلاقية، بقدر ما هو مجرّد تجاوز للتحديد الأخلاقي للخير والشرّ والحكم على الأشياء من وجهة نظر مختلفة عن الأخلاق[1].

(1) «Changer notre façon de juger, afin de parvenir finalement, et peut être très tard, à mieux encore : changer notre façon de sentir ». Nietzsche. F. Aurore. § 103. Trad. Julien Hervier. Gallimard. Paris 1970 .

خاتمة

إن اشتغال نيتشه على مسألة القيم كان بمثابة الثورة الحقيقية في تاريخ الفلسفة، ذلك أن طرحه لهذه المسألة كان من وجهة نظر نقدية قطعت قطعا واضحا مع النهج الذي كان يتبعه سابقوه في ما يخص هذا الموضوع.

وبتتبعنا للسياق التاريخي لاستعمال لفظ «قيمة» نجد أن «قيمة» الشيء كانت تعني ثمنه (بالمعنى التقليدي للكلمة.) وبالفعل لقد كانت نظرية القيمة هي القاعدة الأساسية لما كنا نطلق عليه «الاقتصاد السياسي». ومع ذلك تواصل استعمال هذا اللّفظ سواء كان ذلك في اللغة اليومية أو في لغة علماء الاقتصاد[1].

ولقد ناقش الفلاسفة في كل الأزمنة مسائل تتعلق بطبيعة الحكم الأخلاقي أو الجمالي، وتناولوا مسائل أخرى تتعلق بالحقيقة والواقع والخير الأعظم ... ولكن البعض من هؤلاء الفلاسفة وخاصة أفلاطون

Francis Jacques, Encyclopaedia Universalis. (1)

عالجوا كل هذه المسائل باعتبارها مسائل موحدة، تنتمي إلى نفس المستوى من الوجود. ولكن حصل أول تمييز بين هذه المسائل، عندما فصل الفلاسفة بين المواضيع المتصلة بما يجب أن يكون من جهة، والمواضيع المتصلة بما هو كائن من جهة أخرى. ولكن مهما يكن الأمر فإن كل تلك المواضيع تندرج ضمن النظرية العامة في القيمة.

وبهذا المعنى فإننا أصبحنا نسمي كل عملية قبول أو رفض للشيء أو أي حكم نقدي حوله، «قيمة» .

وأكثر من ذلك فإننا نتحدث عن نوعين من القيم / قيم إيجابية وقيم سلبية، بحسب قبولنا أو رفضنا للأشياء.

وعموما، إن النظرية العامة للقيمة، أو ما اصطلحنا على تسميته بالأكسيولوجيا (Axiologie)، تعنى أساسا بموقفنا من الأشياء قبولا أو رفضا .

وإن هذه النظرية هي الكفيلة مع ذلك بأن تجعلنا نخضع الأشياء إلى حكم نقدي، وتمكننا من كل الوسائل التي تضمن لنا بناء مواقف وأحكام نتمكن من التعبير عنها بوصفها أحكامنا الخاصة تجاه تلك الأشياء، ومن ثمة تجاه العالم من حولنا .

وإن الكثير من الفلاسفة لا يستخدمون لفظ «قيمة» إلا بمعان أضيق وأكثر خصوصية، والبعض منهم يميز بوضوح بين ما يسمى «أحكام القيمة»، أي الأحكام التي تطلق حول ماهو طيب أو سيء، وبين ما يطلقون عليه «أحكام إلزام» أي الأحكام حول ما هو صحيح ومسموح به أو ما هو إلزامي.

ولكن هناك كذلك من الفلاسفة من يقبل اعتبار «أحكام الإلزام» جزءا من «أحكام القيمة» ولكنهم يؤكدون مع ذلك أنها وحدها الأحكام التي لها طابع كوني هي التي تعتبر أحكام قيمة.

وأما البعض الآخر فيضيف بعض الشروط الأخرى، من بينها أن كل «حكم قيمة» يفترض ضرورة التزاما عمليا[1].

وهذا بالضبط ما عمل نيتشه على تأكيده من خلال مشروعه الفلسفي إذ حرص على إدماج الأبعاد النظرية في الأبعاد العمليّة ليكتمل بذلك تصوره النقدي لمسألة القيم .

لقد تبين لنا من خلال هذا البحث أن الموضوع الأساسي الذي كان يشغل بال فيلسوفنا هو التالي : كيف نجعل من الحياة مجالا نستعيد من خلاله صورة الكائن الإنساني القادر على تجاوز مكامن الضعف ؟

إن الإجابة النيتشوية استقيناها من معظم آثار نيتشه، ومفادها أن الحياة لا تصير حياة جديرة بأن تحمل آثار القوة والمقدرة الإنسانية إلا إذا كانت حاملة لمعان وقيم من صنع الإنسان نفسه.

إلا أننا يجب أن نفهم مع ذلك أن حياة القيمة والمعنى ليست هي الغاية في حد ذاتها عند نيتشه، بل هي وسيلة من آجل إدراك غاية أخرى أهم وهي إدراك الكائن لمزيد من القوة والقدرة، فـ «إرادة القوة»

(1) Francis Jaques. Encyclopaédia Universalis

أهم بكثير من «إرادة الحياة».

وهكذا، يتمثل المشروع العام لنتيشه في إدخال مفهومي المعنى والقيمة في الفلسفة . ونرى أن الفلسفة الحديثة، في جانب كبير منها، تعيش على وقع هذا المشروع النيتشوي، وذلك بالرغم من القراءات الفلسفية المتعددة لمسألة القيم .

إذ أننا برجوعنا إلى الفلاسفة الإنجليز وخاصة بنتام Bentham وستوارت مل Stuart Mill، نجد تأكيدا واضحا على الطابع النفعي لمسألة القيمة.

إذ يحرص هؤلاء على المضي في أثر الأبيقوريين في تنمية الدلالة الحسابية للنفعية . وبهذا المعنى تقام الأخلاق على أساس عملية حسابية تحكمها حركة إنسانية يصدر عنها بالضرورة موقف قاعدته الأساسية الحساب والموازنة والتقدير.

ولا خلاف أن أي حكم أخلاقي، بهذه الصفة، سيكون مستنبطا على نحو جزئي من عملية مقارنة، ولكن هذا الحكم يستند في كل الأحوال إلى الواقع[1] .

وإذا كان هناك من الفلاسفة من لم يربط القيمة بالمنفعة فإنه يربطها بالواجب، على غرار ما قام به لوسين (Le Senne)، الذي اعتبر

(1) فلسفة القيم، ترجمة عادل العوّا : ص 18 عويدات للنشر والطباعة، بيروت 2001

أن الكائن لم يعد أساس القيمة بل القيمة هي أساس الكائن.

ومن هذه الزاوية، فإن الكائن ناقص بطبعه، والقيمة هي شرط من شروط اكتماله.

وهكذا، فإن القيمة بهذا المعنى هي تجربة تخوضها الذات من أجل الاكتمال، ولهذا فحضورها هو حضور أنطولوجي بالدرجة الأولى، وهو حضور يعلن عن وجود الكائن في حد ذاته.

إن لوسين يعتبر أن القيمة هي أشبه ما تكون برسالة على الكائن أن يضطلع بها حتى يحقق ذاته، وهي كذلك واجب ينبغي عليه أداؤه. ولكن رغم كل شيء فإن القيمة تعلن من جهة أخرى، عن حالة من التوتر داخل الكائن، ولكن هذا التوتر ينتهي بالتوحد مع الكائن الكامل «المتحقق في الله». وإذن، فإن نظرية الأخلاق هي خضوع للواجب ولكنها أيضا استجابة للكائن المطلق الذي يتجاوز الكون.[1]

وإن ما يجعلنا نصف المشروع النيتشوي بأنه «انقلاب»، هو أنّ نتيشه أعلن عن خارطة جديدة للقيم وطريقة جديدة للتقويم تقصي أولا التناول الأفلاطوني، وتبعد كذلك الاعتبار الحسابي الذي اعتنى به الفلاسفة النفعيون.

إن النيتشوية تعلن أنّ التقويم الحقيقي الذي يقصي الحسابات الوضعية هو من شيم النفس النبيلة، وهو الذي يحدد الشعور البطولي

(1) نفس المرجع، ص 88.

لشجاعة لانهائية فيما يجاوز الحس الاقتصادي. وهكذا يمكن اعتبار الفهم النيتشوي للقيمة فهما قائما على التجاوز .[1]

إن المسلمة الأساسية لفلسفة نيتشه هي أن القيمة لا وجود لها في حد ذاتها، بل إن كل القيم تشتق من القوى المتصارعة، ولذلك قيل بأن بحث نيتشه في أصل القيم يمثل «ثورة كوبرنيكية»[2]، خاصة وأن نقده لا يتوجه أساسا إلى الأصل بل إلى القيمة نفسها . وإن الجينيالوجيا بما هي تأويل وبحث في الأصل، أي أصل القيم، تكتفي بالكشف عن القيم وذلك عن طريق معرفة أصلها، ولكن دون أن تؤثر في ذلك الأصل بل تسعى إلى تحويل القيم .[3]

ويبدو لنا من خلال هذا الطرح، أننا مع نيتشه في حاجة إلى نقد القيم الأخلاقية أو، بمعنى أوضح، في حاجة إلى طرح مسألة قيمة هذه القيم، وهذا ما كان في الأصل مشروعا أساسيا لفيلسوفنا. وإن نقد نيتشه للقيم الأخلاقية السائدة، وخاصة منها قيم الحضارة الأوروبية الغربية يفضي بنا إلى نوع من الفضح لهذه الحضارة ولطباعها العدمي. وإن الحل الذي يقترحه على هذه الحضارة للخروج من حالة العدمية هذه هو «تحويل كل القيم»، ولا يتم هذا التحويل إلا باستبدال الإرادة

---

(1) نفس المرجع، ص 20.

(2) Chassard . pierre . Nietzsche . finalisme et histoire . P .59 . Paris . Copernic. 1977.

(3) نور الدين الشابي : نتيشه ونقد الحداثة، ص 105، دار المعرفة للنشر – القيروان 2005.

النافية بالإرادة المثبتة .[1]

ويمكن القول تبعا لذلك، بأن «تحويل القيم»، يأخذ في المنظور النيتشوي معنى الخلق، خلق حياة جديدة بقيم جديدة تكون ناتجة، هي بدورها، عن تغير نوعي في «إرادة القوة».

وهكذا فإن فلسفة المعنى والقيمة عند نيتشه تكون بمثابة حركة نقدية تتوجه إلى الحياة نفسها، الحياة الضعيفة التي تلتحف بقيم الانحطاط السائدة.

ولقد تبين لنا أن المشروع النقدي النيتشوي مشروع ثوري ينسف أركان التوجهات السابقة، خاصة وقد بين نيتشه نفسه أن كانط لم يقم بعملية نقد حقيقية لأنه لم يدخل عنصر القيمة في الفلسفة [2].

وإن فلسفة القيم عند نيتشه، هي التأكيد الفعلي للنقد والصورة الوحيدة للفكر النقدي، حيث تبدو الحياة السائدة في حاجة إلى الزوال لكي تترك مكانها لنوع جديد من الحياة. إن الحياة بالمعنى الجديد عملية «تقويم» متواصلة، ووضع القيم هو شرط أساسي لكي يحيا الإنسان .

وإن هذه القيم ليست في الحقيقة سوى رغبة شديدة في

---

(1) Whal, Jean . L'Avant dernière pensée de Nietzsche, p.142, Paris . Centre de documentation Universitaire, 1961.

(2) أنور مغيث، جيل دولوز : الأصل والمعنى عند نيتشه، مجلة «إبداع»، العدد9، سبتمبر 2001، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

«الاستحواذ»، لأن معنى الحياة الحقيقي يكمن في نزوعها نحو التوسع والانتشار . غير أن أساس الفلسفة النيتشوية يقوم على اعتبار جوهر الوجود كله هو الحصول على «إرادة قوة» لا «إرادة الحياة»، وهذا ما جعل البعض يعتبر نيتشه من المنظرين لـ «حرب الكل ضد الكل»، إذ أن الفرق كبير بين أن تكون كل ملكات الإنسان العقلية والروحية مسخرة من أجل «إرادة الحياة» لنفسه وللآخرين، وأن تكون كل هذه الملكات مسخرة للحصول على القوة فقط [1] .

إن فلسفة نيتشه كانت ركنا أساسيا من أركان الحركة النقدية التي شهدها الفكر الفلسفي،، بل هي من أقوم هذه الأركان، لا لأنها أحدثت انقلابا واضحا في التعامل مع المسألة القيمية فحسب، بل لأنها كذلك رسمت لونا جديدا للحياة المنشودة، حياة تقوم على قيمة جوهرية هي «إرادة القوة». ولعلنا نلمس اليوم بعض تأثيرات الفلسفة النيتشوية في عالمنا المعاصر، ونحن نشهد – منذ زمن غير بعيد- تحولات عميقة تشق قيمنا على كل المستويات السياسية والدينية والفنية والاقتصادية ... فهل يتحقق الحلم النيتشوي بالانتقال من عدمية سالبة إلى عدمية فاعلة ومكتملة في عالم معاصر يشهد تحولات عميقة ومتسارعة، خاصة وأن نيتشه نفسه نبهنا إلى ذلك قائلا : «إنني أروي حكاية القرنين القادمين ؟»[2] .

---

(1) إبراهيم عمر : جويو ضد نيتشه، نفس المرجع.

(2) Nietzsche, F. Fragments posthumes, trad. Pierre Klossowski, Paris . Gallimard 1976 (oeuvres . Tome XIII).

بيبليوغرافيا

Bibliographie

المصادر:

- Nietzsche, Friedrich, Ainsi parlait Zarathoustra, collection «Idées », Paris 1969.

- Nietzsche, Friedrich: Aurore,Traduction: Julien Hervier, Gallimard, 1970, Paris.

- Nietzsche, Friedrich: Ecce Homo, Traduction : Henri Albert, Gonthier, Paris 1971.

- Nietzsche, Friedrich: Fragments posthumes, traduction: klossowski, Gallimard, Paris, 1976.

- Nietzsche, Friedrich; La volonté de puissance, Traduction : Bianquis, Gallimard 1937.Paris

- Nietzsche, Friedrich: La généalogie de la morale, Traduction : Heim, Hildenbrand et Gratien, Gallimard, Paris 1971.

- Nietzsche, Friedrich: La généalogie de la morale, Traduction:Hildenbrand et Gratien , Fernand Nathan 1984.
- Nietzsche, Friedrich: Le crépuscule des idoles, Traduction : H.Albert, Mercure de France,Paris 1899
- Nietzsche, Friedrich: Par-delà bien et mal, traduction : Cornélius Heim, Gallimard, Paris 1971.

2- المراجع:

أ- بالعربية:

- عبد الرحمن بدوي: نيتشه، وكالة المطبوعات، الكويت 1975 .
- نور الدّين الشّابي: نيتشه ونقد الحداثة، دار المعرفة للنشر- القيروان 2005
- يوحنّا قمير: نيتشه نبي المتفوق، دار المشرق، بيروت 1986.
- سلوتردايك، بيتر:«الإنجيل الخامس لنيتشه» ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل-ألمانيا 2003
- دولوز، جيل: نيتشه والفلسفة : ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1993
- بودو، بيار: نيتشه مفتّتا، ترجمة أسامة الحاج المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع- بيروت 1996.

- فلسفة القيم: عويدات للنشر والطباعة، ترجمة عادل العوّا، بيروت 2001.
- ألكسيس فيلونينكو:نيتشه فيلسوف الحياة، الفكر العربي المعاصر، العدد 134-135 السنة 2006
- مجلة «إبداع»، العدد 9، السنة 2001 – الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ب-بالفرنسية:

- Bréhier, Emile: Histoire de la philosophie, cerés 1995.
- Canguilhem, Georges: la connaissance de la vie, vrin, paris 1971.
- Canguilhem, Georges: Etudes d'histoire et de philosophie des sciences; vrin, Paris 1983.
- Collection 10-18, Nietzsche aujourd'hui ? Centre culturel de cerisy- la- salle, Paris 1973.
- Deleuze, G: Nietzsche et la philosophie, P.U.F. 1967.
- Encyclopaédia Universalis
- Granier, Jean: Nietzsche, P.U.F. 1985 (Que sais-je ?)
- Haar, Michel: Nietzsche et la métaphysique, Gallimard ,Paris, 1993.

- Heidegger. M: Nietzsche. Traduction : Pierre Klossowski. Paris 1971.

- Le point. n°15 (Hors- série) . septembre – octobre. 2007.

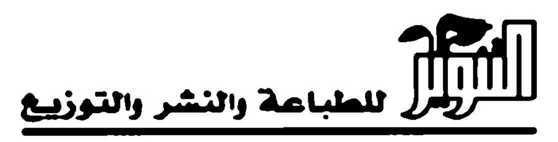
- Wahl. Jean: L'avant dernière pensée de Nietzsche. centre de documentation universitaire. Paris 1961.

فهرس المحتويات

فلسفة القيم نماذج نيتشوية

حاول نيتشه أن يرسم تصورا جديدا للحياة خالف به كل الفلسفات الميتافيزيقية السابقة والتصورات الدينية السائدة وخاصة منها التصور المسيحي الذي يعادي الحياة ويقصي كل بعد حيوي فيها حسب تصور فيلسوفنا.

ولعل ذلك ما يجعلنا نقر بان فلسفة نيتشه في جانبها المتعلق بالحياة والقيم، هي فلسفة نقدية لا على طريقة كانط بل على طريقة «فيلسوف الحياة» الذي يجعل من «إرادة القوة» ومن «الغرائز الحيوية» مرجعا أساسيا لخلق القيم، هذه القيم الجديدة التي يحدد بها الإنسان معاني وجوده.



بيروت - هاتف: ٠٠٩٦١١١٤٧١٣٥٧ تلفاكس: ٠٠٩٦١١١٤٧٥٩٠٥
Email: dar_altanweer@hotmail.com
dar_altanweer@yahoo.com
توزيع دار الفارابي

